# الأثنوجرافيا


## أ.د. علا المهدي التونسي

قسم الآثار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق


**مقرر الأثنوجرافيا**

**قسم الآثار**

**السنة الأولى-الفصل الثاني**

**العام الدراسي: 2025-2026.**

**المحاضرة الأولى**

# الأثنوجرافيا

## مقدمة وتعريف:

**الأثنوجرافيا** (Ethnography) هي دراسة وصفية لمجتمع بشري معين ونمط حياته. ويمكن تحديد مفهوم الأثنوجرافيا في أنها الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين في فترة زمنية محددة[1]. وهي بالضرورة دراسة مفصّلة لأنشطة جماعة من الناس عن طريق مجموعة من الباحثين الذين يقضون مع تلك الجماعة فترة طويلة الأمد (عام أو أكثر). كذلك تهتم هذه الدراسة الوصفية بالعادات والأساليب الحياتية الشعبية، وعناصر الثقافة المادية وغير المادية للشعوب والمجتمعات المتمايزة. وتشكل المادة الاثنوجرافية قاعدة بيانات تعتمد عليها البحوث الاثنوجرافية المهتمة بخصائص السلالات وأنماط الاتصال والتفاعل فيما بينها. وتُستخدم بشكل أساسي في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الاجتماع وعلم الآثار (الأثنوجرافيا الأثرية: Ethnoarchaeology). تعتمد الأثنوجرافيا المعاصرة بشكل شبه كامل على العمل الميداني، وتتطلب انغماس العالم التام في ثقافة وحياة الناس اليومية الذين هم موضوع دراسته، بهدف اكتساب فهم عميق وشامل قدر الإمكان لثقافتهم وسلوكياتهم وتفاعلاتهم الاجتماعية. ويعتمد انجاز هذا العمل على تدوين ملاحظات ميدانية مفصلة، وإجراء مقابلات.

[1] فهيم، حسين، 1986، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، ص 146؛ سلطان، آلاء رجب، 2010، دراسات الأثنوجرافيا: مفاهيم ومداخل وأدوات، أركان للدراسات والأبحاث والنشر، ص. 2–3.

تُعدُّ **الأثنوجرافيا** منهجاً بحثياً ومنتَجاً فكرياً في آن واحد، إذ **يشير المعنى العام** والشائع للأثنوجرافيا إلى "دراسة الثقافة الخاصة بجماعة من الناس"، ولهذا المعنى **نوعان** من الاستخدام[2]: يشير **الأول** إلى الأثنوجرافيا منهجاً يعتمد أساساً على عمل ميداني يقوم عليه باحث بمفرده يعيش مع المجموعة المدروسة لمدة عام أو أكثر فرداً منهم، ملاحظاً ومُشاركاً لهم في الأنشطة المجتمعية كافة. ويشير **الثاني** إلى الأثنوجرافيا باعتبارها نتيجةً تتوصل إليها الدراسة، أو بمعنى آخر الأثنوجرافيا ككتابات تُصّوِر ثقافة ما. يعود أصل التسمية إلى الجذور اليونانية، إذ تعني كلمة "إثنوس" (Ethnos) الشعب أو العرق البشري، و"غرافيا/"(Graphia) الكتابة أو الوصف، وبالتالي فهي حرفياً تعني "وصف الشعوب". ويُقصد "بتصوير الشعوب" وصفُها وبيان ما يسودها من نظم وعادات وتقاليد، دون الدخول في تحليل هذه المعلومات وإيجاد الصلة بينها.

تعتمد الأثنوجرافيا بشكل أساسي على **الملاحظة بالمشاركة** كأداة مركزية لجمع البيانات، إذ ينغمس الباحث في الحياة اليومية للمجتمع المدروس لفترة طويلة، قد تصل إلى سنوات. يتيح هذا الانغماس للباحث فرصة اكتشاف الأنماط السلوكية، والقواعد غير المُعلنة، والمعاني الرمزية التي تشكل نسيج الحياة الاجتماعية للمجموعة. يُعد التقرير الاثنوجرافي النهائي تتويجاً لهذا العمل الميداني، وهو يتميز بكونه سرداً كثيفاً ومفصلاً يسعى إلى نقل الخبرة المعيشية للمجموعة إلى القارئ الأكاديمي.

**منهجية وأهداف الأثنوجرافيا العامة:**

يعتبر الهدف الأساسي للأثنوجرافيا فهم العالم الاجتماعي والثقافي للمجموعة المدروسة من وجهة نظر أفرادها (أي من منظور داخلي) بدلاً من فرض الأطر التحليلية الخارجية عليها. ويقوم عالم الأثنوجرافيا بمعايشة المجتمع المستهدَف على فترة من الزمن في وضع طبيعي بهدف اكتساب فهم عميق لثقافتهم وسلوكياتهم

[2] سلطان، آلاء رجب، 2010، ص. 6.

وتفاعلاتهم الاجتماعية. ويقوم باستخدام أساليب بحث ميدانية، منها: الملاحظة بالمشاركة، وسجل الأداء (وثيقة تستخدم لتسجيل كافة الوقائع بشكل منتظم)، والزيارات الميدانية، واستمارات البحث. عادةً ما تركز الدراسات الاثنوجرافية المعاصرة على المجتمع، لا على الفرد، وتولي اهتماماً لوصف الظروف الراهنة بدلاً من الأحداث التاريخية. في البدء كان يُشدد على القواسم المشتركة بين أفراد المجموعة، إلا أن الدراسات الاثنوجرافية الحديثة بدأت تُظهر اهتماماً بأهمية التنوع داخل الأنظمة الثقافية. فمثلاً لم تعد الدراسات الاثنوجرافية مقتصرة على المجتمعات البدائية الصغيرة، بل أصبحت تركز أيضاً على وحدات اجتماعية مثل الأحياء الفقيرة في المدن[3]. ومن الجدير بالذكر أن أدوات الباحث الاثنوجرافي تغيرت جذرياً منذ زمن العلماء الأوائل، فبينما لا تزال الملاحظات التفصيلية ركناً أساسياً في العمل الميداني إلا أن الإثنوجرافيين الآن أصبحوا يستخدمون الأدوات التكنولوجية المتطورة، مثل الأفلام وأجهزة التسجيل، لتدوين وإثبات وإثراء أبحاثهم الميدانية.

**مخاطر وأخطاء العمل الاثنوجرافي:**

يربط العلماء المعاصرون عادةً تأسيس علم الاثنوجرافي كمجال مهني بالعمل الرائد لكل من عالم الأنثروبولوجيا البريطاني من أصل بولندي، مالينوفيسكي (Bronisław Malinowski)، الذي عمل في جزر تروبرياند في ميلانيزيا (نحو عام 1915)[4]، وعالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية مارغريت ميد (Margaret Mead)، التي أجرت أولى دراساتها الميدانية في جزر ساموا (1925) في جنوبي المحيط الهادي[5]. ومنذ ذلك الحين، أصبح العمل الميداني الاثنوجرافي بمثابة طقس عبور إلى مهنة الأنثروبولوجيا الثقافية. يقيم العديد من علماء

[3] للتوسع أكثر في علم الأثنوجرافيا والإثنولوجيا، انظر: لابورت تولرا، فيليب وفارنييه، جان بيار 2014، *إثنولوجيا أنثروبولوجيا* (ترجمة: د. الصمد، مصباح)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

[4] جزر تروبرياند عبارة عن أرخبيل من الجزر المرجانية تقع قبالة الساحل الشرقي من غينيا الجديدة.

[5] هي دولة تضم القسم الغربي من جزر ساموا الواقعة في جنوبي المحيط الهادئ.

الاثنوجرافيا في الميدان لمدة عام أو أكثر، يتعلمون اللغة أو اللهجة المحلية، ويشاركون قدر الإمكان في الحياة اليومية مع الحفاظ في الوقت نفسه على حياد الباحث الموضوعي. هذه الطريقة، التي تُسمى الملاحظة بالمشاركة كما أشرنا سابقاً، ضرورية ومفيدة لاكتساب فهم شامل لثقافة أجنبية، إلا أنها صعبة التطبيق عملياً. ومن أهم المخاطر التي يمكن للباحث أن يقع فيها:

1. الانحياز: كما يحمل عالم الأثنوجرافيا معه بعض التحيُزات الثقافية المتأصلة، وإن كانت غير واعية، فإنه يتأثر أيضاً بموضوع دراسته. وتشير تجربة العلماء عبر التاريخ إلى أنه وعلى الرغم من وجود حالات لبعض علماء الأثنوجرافيا الذين شعروا بالغربة أو حتى النفور من الثقافة التي انخرطوا فيها، إلا أن الكثيرين قد توحدوا بشدة مع "جماعتهم" (أي الجماعة البشرية التي يقومون بدراستها)، وهو عاملٌ يؤثر على موضوعيتهم.
2. الحصول على معلومات غير دقيقة: بالإضافة إلى أسلوب الملاحظة بالمشاركة، عادةً ما يختار عالم الأثنوجرافيا المعاصر أفراداً، ويُنمّي معهم علاقاتٍ وثيقة، إذ يُمكنهم تقديم معلوماتٍ مُحددة حول الطقوس والقرابة وغيرها من الجوانب الهامة للحياة الثقافية. وفي هذه العملية أيضاً، يُخاطر الباحث بحصوله على وجهات نظر مُتحيزة، لأن بعض الذين يُبدون استعداداً أكبر للعمل قد يكونون أفراداً مُهمشين في المجموعة، يُقدمون، لدوافع خفية (مثل الشعور بالغربة عن المجموعة أو الرغبة في أن يُميزهم الأجنبي)، بتقديم تفسيراتٍ غير موضوعية للظواهر الثقافية والاجتماعية.
3. التغيرات المُحتملة: الخطر الأخير المُلازم للعمل الميداني الاثنوجرافي هو وجود احتمال دائم لحصول تغير ثقافي ناتج عن وجود عالم الأثنوجرافيا في المجموعة أو الناجم عنه.

**الأثنوجرافيا والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا**

تُعد الأثنوجرافيا أحد التطبيقات الأساسية لعلم **الأنثروبولوجيا** (Anthropology)، التي تعني بدورها "علم الإنسان"، وتهتم بدراسة الإنسان من الناحية البيولوجية (أي الطبيعية) والاجتماعية والحضارية. يرجع أصل الكلمة إلى اليونانية، وهي مؤلفة من مقطعين: أنثروبوس (Anthropos) تعني الإنسان، ولوجوس (Logos) أي العلم، فتكون بذلك الأنثروبولوجيا "علم الإنسان"[6]. ويعتبر بعض العلماء–ومنهم هوبل– بأن الأثنوجرافيا هي جزء من الأنثروبولوجيا وبأنها مصطلح يشير إلى الدراسات الوصفية للمجتمعات الإنسانية التي هي في مستوى نسبي من التقدم[7].

ومن جهةٍ أخرى، فقد ساد بعض اللبس فيما يتعلق بمصطلحي **الأثنوجرافيا والإثنولوجيا**. ويكمن الفرق البسيط في أن **الإثنولوجيا** هو مصطلح أكثر شيوعاً في أوروبا، ويشمل الدراسة التحليلية والمقارِنة للثقافات بشكل عام، وهو ما يُعرف في الاستخدام الأمريكي باسم **الأنثروبولوجيا الثقافية** (وفي الاستخدام البريطاني، **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**).

**الإثنولوچيا (Ethnology):** التي تعني حرفياً علم الشعوب ("إثنوس"= شعب، "لوغوس"= علم)، هي فرع من فروع الأنثروبولوجيا أيضاً، وتُعرف بصفةٍ عامة بأنها علم "دراسة الانسان ككائن ثقافي وبأنها الدراسة المقارِنة للثقافات". عرّفها هوبل (Hoebel) بأنها: (فرع من الأنثروبولوجيا يتخصص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها بطريقة منهجية تشبه في سماتها العامة الأنثروبولوجيا الثقافية وفقاً للمنهج الأمريكي)[8]. تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة الأجناس البشرية الموجودة في الوقت الحالي أو التي اختفت في الآونة القصيرة، مع الدراسة التحليلية

[6] الجباوي، علي عبد الله، 1997، الأنثروبولوجيا، جامعة دمشق، ص. 9.

[7] الصالح، مصلح 1999–2000، مصطلحات العلوم الاجتماعية الشامل، دار عالم الكتب، السعودية، ص. 196.

[8] Hoeble, E.A. 1972, Anthropology: The Study of Man, McGraw-Hill, USA.

المقارِنة للشعوب البدائية. أما الإثنولوجيا فتهتم أيضا بدراسة الظواهر الاجتماعية عند الشعوب وفي المجتمعات البدائية، وتنتهج منهج تاريخي لكي تكتشف نشأة الظاهرة وتتبع مراحلها. لقد كانت الإثنولوجيا في البداية (في القرن التاسع عشر) تشير إلى التحليل التاريخي والمقارن للمجتمعات والثقافات غير الغربية، وكانت تشكل جوهر البحث الاثنوجرافي لأنها كانت ترتكز على البحوث الاثنوجرافية الفردية للرحالة والمبشرين. ومع مرور الوقت لم تحظَ الإثنولوجيا بالقبول بعد اتجاه الأنثروبولوجيين لإجراء بحوث ميدانية، وعندها صارت الأثنوجرافيا تُمّثل التكامل بين البحث التجريبي والتفسير النظري المقارن للنُظم الاجتماعية والثقافة. كما أصبحت الأثنوجرافيا أحد أساليب البحث في علم الاجتماع الغربي ودراسة المجتمعات المحلية. وتجدر الإشارة إلى أن التمييز بين المصطلحين هو أمر نظري أكثر منه عملي، فالأثنوجرافيا، بحكم طبيعتها التفاعلية، تعتمد بالضرورة على المقارنة، وإن صياغة التعميمات حول ثقافةٍ ما وإجراء المقارنات هما حتماً من مكونات الأثنوجرافيا.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن وصف أنماط الحياة هو نشاطٌ له جذورٌ ضاربةٌ في القدم، إذ كتب هيرودوت (الرحالة والمؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) عن نحو خمسين شعباً مختلفاً التقى بهم أو سمع عنهم، مُشيراً إلى قوانينهم وعاداتهم الاجتماعية ودينهم ومظهرهم. ومنذ عصر الاستكشاف وحتى أوائل القرن العشرين[9]، قدّم التجار والمبشرون الأوروبيون، ولاحقاً المسؤولون الاستعماريون، روايات مُفصّلة عن الشعوب غير الأوروبية. وتختلف مصداقية هذه الروايات اختلافاً كبيراً، إذ غالباً ما أساء الأوروبيون فهم ما رأوه، أو كانت لهم مصلحةٌ في تصوير رعاياهم بصورةٍ أقل موضوعية.

[9] يمتد عصر الاستكشاف من بداية القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن السابع عشر في التاريخ الأوروبي، وهو مرحلة قام خلالها المستكشفون الأوروبيون برحلات بحرية واسعة النطاق لاستكشاف مناطق مجهولة، بحثاً عن طرق تجارية جديدة (خاصة للتوابل) وثروات، مما أدى إلى ربط قارات العالم (بداية العولمة) وتغيير خريطة العالم المعروف آنذاك، وهو العصر الذي بدأ فيه العمل الاستعماري.

يمكن إذاً **استنتاج** ما يلي: **الإثنولوجيا** Ethnology هي العلم الذي يهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الاثنوجرافية؛ بهدف الوصول إلى وضع نظريات أو تعميمات حول مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية، من حيث أصولها وتطورها وتنوعها. وبهذا تشكل المادة الاثنوجرافية قاعدة أساسية لعمل الباحث الإثنولوجي، فالأثنوجرافيا والإثنولوجيا وجهان لعملة واحدة.[10]

أما **الأثنوجرافيا الأثرية** (Ethnoarchaeology) وهي تخصص فرعي (أي أنها جزء أو فرع) من الأثنوجرافيا، فقد تطورت من هذه الجذور لتُصبح تخصصاً ذو منهجية مستمدة مباشرة من علم الآثار والأنثروبولوجيا الثقافية[11]. يُعدُّ علم الأنثروبولوجيا الأثري الحديث عنصراً أساسياً في فهمنا لكيفية عيش الناس في الماضي بشكل أساسي، لأنه يقوم على تفسير البقايا المادية في الحقل الأثري من خلال دراسة أوجه التشابه المُحتملة التي نشهدها في الحاضر. فتقوم المقارنة والاستدلال بالقياس بمساعدة عالم الآثار على تقديم تفسيرات لما يعثر عليه في الحقل الأثري من مواد وأدوات وغيرها من مفردات الثقافة المادية[12]. ومن الجدير بالذكر أن الأنثروبولوجيا الثقافية تتناول مجموعة التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان، فهي تهتم بعدد من المجالات مثل: دراسة الحضارات القديمة منذ عصور ما قبل التاريخ والتي تعرف باسم **علم الآثار**، كما تتناول أيضاً دراسة لغات الشعوب واللهجات المحلية، وذلك في إطار ما يُعرف بـ"**علم اللغويات**". يجمع البحث الميداني الاثنوجرافي–الأثري بين الملاحظة بالمشاركة والتسجيل المفصّل للسمات والقطع الأثرية. وبخلاف البيانات المستمدة من المصادر الاثنوجرافية وغيرها، والتي قد تغفل أحياناً الثقافة المادية والتكنولوجيا تماماً، يهدف البحث الاثنوجرافي–الأثري صراحةً إلى مراقبة السلوكيات وتوليد مجموعة بيانات قابلة للتطبيق

[10] سلطان، آلاء رجب، 2010، ص. 5.

[11] Iles, L. and Childs, S. T. Ethnoarchaeological and Historical Methods in Archaeometallurgy, *in* Global Perspective (Roberts, B. W. and Thornton, Ch. P. eds.), Springer New York, NY, p. 194.

[12] Johnson, M. (2010). Archaeological theory: An introduction. Oxford: Wiley-Blackwell, p. 50.

بسهولة أكبر على البقايا المادية الموجودة في السجل الأثري. وقد بدأت الدراسات الأنثروبولوجية ذات الأهداف والمنهجيات الاثنوجرافية–الأثرية الصريحة بالظهور بدءاً من ثلاثينيات القرن العشرين، مُبشّرةً بتحوّل من التركيز على الجانب النظري نحو تطوير مقارنات واستدلالات قوية وقابلة للاختبار لتفسير الماضي. وبعد بضعة عقود، تطوّرت الأبحاث الاثنوجرافية–الأثرية لتُصبح تخصصاً قائماً بذاته، وأصبحت هذه الدراسات أكثر تركيزاً وشمولاً للتطبيق الأثري. وقد عُنيت هذه الدراسات بتوجيه الانتباه نحو السياقات الاجتماعية والمادية لتقنيات الإنتاج، وتصنيع القطع الأثرية، واستخدامها وتوزيعها، والتنوع في أسلوب الإنتاج[13].

[13] David, N. (1992). "Integrating ethnoarchaeology: A subtle realist perspective", *Journal of Anthropological Research, 11*, p. 330 (p. 330–359).

**المحاضرة الثانية**

# الأنثروبولوجيا

## تعريف الأنثروبولوجيا، النشأة والتطور

**تعريف:** كما أشرنا آنفاً فإن الأنثروبولوجيا من الناحية اللغوية تعني "علم الإنسان". إلا أنها في الواقع ليست سوى أحد علوم الإنسان، إذ تجمع بين التخصصات التي تهدف جميعها إلى وصف الإنسان وتفسيره بناءً على الخصائص البيولوجية[14] والثقافية، مع التركيز على الاختلافات والتنوعات بين المجموعات البشرية. وقد حظي مفهوم العرق، من جهة، ومفهوم الثقافة، من جهة أخرى، باهتمام خاص؛ ورغم أن معناهما لا يزال محل نقاش، إلا أنهما بلا شك الأكثر شيوعاً في قاموس الدراسات الأنثروبولوجيّة. ولعله من الجدير بالذكر أن **العِرق** هو تصنيف اجتماعي يقوم على المظهر الجسدي والخصائص البيولوجية الظاهرة للإنسان، أما **الثقافة** فهي الممارسات واللغة والدين والعادات الاجتماعية.

**النشأة والتطور:** نشأ علم الأنثروبولوجيا، الذي يهتم بدراسة الاختلافات البشرية، بعد "عصر الاستكشاف"[15] الذي فتح آفاقاً جديدة نحو المجتمعات التي ظلت بمنأى عن الحضارة التكنولوجية للغرب الحديث. في الواقع، اقتصر مجال البحث في البداية على تلك المجتمعات التي وُصفت بأوصاف غير مُرضية، مثل: "متوحشة"، "بدائية"، "قبليّة"، "تقليدية"، أو حتى "ما قبل الكتابة"، "ما قبل التاريخ"، وما إلى ذلك. ولقد كان القاسم المشترك بين تلك المجتمعات، قبل كل شيء، هو كونها الأكثر "اختلافاً" أو الأكثر غرابةً بالنسبة للأنثروبولوجي الأوربي

[14] البيولوجيا هو علم يُعنى بدراسة الحياة والكائنات الحية بما في ذلك هياكلها ووظائفها ونموها وتطورها وتوزعها وتصنيفها.

[15] عصر الاكتشافات (أو عصر الاستكشاف) هو فترة تاريخية أوروبية امتدت من أوائل القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر، قام خلالها المستكشفون الأوروبيون برحلات بحرية واسعة النطاق لاستكشاف مناطق مجهولة، بحثاً عن طرق تجارية جديدة (خاصة للتوابل) وثروات، مما أدى إلى ربط قارات العالم (بداية العولمة) وتغيير خريطة العالم المعروف آنذاك.

أو الأمريكي؛ إذ كان الأنثروبولوجيون في المراحل الأولى من الأوروبيين أو الأمريكيين الشماليين. وقد مثّلت المسافة (أي البعد والتباين والاختلاف) بين الباحث وموضوع دراسته سمة مميزة للبحث الأنثروبولوجي؛ حتى أنه قيل عن الأنثروبولوجي إنه "فلكي علوم الإنسان". ولقد كانت الأنثروبولوجيا معنيّة على وجه الخصوص بدراسة أنماط السلوك البشري بجميع أبعاده، وبتقديم وصف شامل للظواهر الاجتماعية والثقافية، وذلك لأنها رصدت مجتمعات صغيرة، أبسط أو على الأقل أكثر تجانساً من المجتمعات الحديثة، وتتغير بوتيرة أبطأ، ما يسهل رؤيتها ككل[16].

تجدر الإشارة إلى أن ما ذُكر آنفًا ينطبق تحديداً على فرع الأنثروبولوجيا المعني بالخصائص الثقافية للإنسان. إذ تنقسم الأنثروبولوجيا إلى مجالين رئيسيين هما: دراسة الخصائص البيولوجية للإنسان، ودراسة خصائصه الثقافية. وتتعدد أسباب هذا الانقسام، ولكن أهمها هو رفض الأخطاء الأوليّة المتعلقة بالربط بين العرق والثقافة. بشكل عام، قُسِّم مجال الأنثروبولوجيا الواسع في القرن التاسع عشر إلى سلسلة من التخصصات المتزايدة بالدقة والتخصص، مستخدمةً مناهجها وتقنياتها الخاصة، والتي أُطلقت عليها مسميات مختلفة وفقاً للتقاليد الأكاديمية في كل بلد. وهكذا، انفصل علم الأنثروبولوجيا إلى تخصصين رئيسيين – **الأنثروبولوجيا الفيزيائية** و**الأنثروبولوجيا الثقافية** (بالإضافة إلى تخصصات أخرى مثل ما آثار قبل التاريخ وعلم اللغويات). يتمتع هذان المجالان باستقلالية كبيرة، ولكل منهما علاقاته الخاصة مع تخصصات خارج الأنثروبولوجيا؛ ومن غير المرجح أن يعمل أي باحث اليوم في مجالي الأنثروبولوجيا الفيزيائية والثقافية في آن واحد، إذ أصبح الباحث الشامل نادراً. ومن ناحية أخرى، لم ينفصل المجالان تماماً عن بعضهما البعض، فلا يزال المتخصصون في كلا المجالين يتعاونون في مسائل جينية أو ديموغرافية محددة، وغيرها من الأمور.

[16] Stocking, George W., ed. (2010). *Observers observed: essays on ethnographic fieldwork*. History of anthropology. Madison, Wis: University of Wisconsin Press. p. 107.

**الأنثروبولوجيا الثقافية**

تُعدُّ الأنثروبولوجيا الثقافية فرع رئيسي من الأنثروبولوجيا، يُعنى هذا الفرع بدراسة الثقافة بجميع جوانبها، ويستخدم مناهج ومفاهيم وبيانات علم الآثار، والأثنوجرافيا، والفولكلور، واللغويات في وصفه وتحليله لشعوب العالم المتنوعة. كما أن لعلم آثار ما قبل التاريخ واللغويات روابط وثيقة بالأنثروبولوجيا الثقافية. من خلال طرح مشكلة تطور البشرية بطريقة استقرائية. إذ ساهم علم الآثار في صياغة المفاهيم الأولى لعلم الإنسان، ولا يزال علم الآثار لا غنى عنه في الكشف عن ماضي المجتمعات قيد الدراسة. في العديد من المجالات، عندما يتعلق الأمر بتفسير استخدام الأدوات البدائية أو بعض الظواهر الدينية الأولية، فإن علم الآثار وعلم الإنسان الثقافي يُكملان بعضهما البعض، إذ لا تزال المجتمعات "البدائية" موجودة.

**التطور التاريخي للأنثروبولوجيا الثقافية**

لطالما تساءلت جميع المجتمعات البشرية عن نشأة عاداتها، وعن دلالات الاختلافات بين ثقافتها وثقافات المجتمعات المجاورة. وهكذا، فقد بنت كل منها، بمعنى ما، أنثروبولوجيا خاصة بها. إلا أن التفسيرات المطروحة، حتى وإن استندت جزئياً إلى الملاحظة الدقيقة، ظلت في أغلب الأحيان حبيسة الأساطير. بدأ الفكر العلمي الناشئ بالظهور في عدد محدود من مراكز الحضارة: في منطقة حوض البحر المتوسط، وفي الصين، وفي العالم العربي في العصور الوسطى، وفي العالم الغربي الحديث. إلا أن الغرب وحده شهد التقاء أفكار متنوعة أدت إلى ولادة الأنثروبولوجيا العلمية في القرن التاسع عشر.

ومن السمات المشتركة بين جميع هذه المراكز الحضارية سيطرتها على مساحات شاسعة، والفرصة التي أتيحت لها – من خلال جنودها وتجارها وحجاجها ومبشريها – لجمع ملاحظات عن طيف واسع من السكان المحليين. وقد كان جمع هذه البيانات ضرورياً للبدء في فهم كيفية تكيف البشر مع بيئاتهم، وكيفية استخدامهم لمؤسساتهم

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المختلفة، وكيف تطورت البشرية من مجتمعات بسيطة إلى مجتمعات معقدة. وقد طرح المؤرخون والفلاسفة من اليونانيين القدماء والعرب والصينيين مثل هذه الأسئلة. وقد حظي علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) باهتمام واسع من العلماء العرب، إذ يُعدُّ **ابن خلدون** الأب الروحي للعلوم الاجتماعية؛ وقد حلل في كتاب "المقدمة" طبائع الشعوب[17]، وتأثير البيئة والمناخ على سلوك البشر، ومفهوم "العصبيّة." أما **أبو الريحان البيروني**[18] فيُوصف بأنه "أول أنثروبولوجي" في الإسلام؛ قدم في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" دراسة ميدانية عميقة للأديان، اللغات، والعادات الاجتماعية في الهند بأسلوب موضوعي. وهو أهم وأوسع كتاب وصلنا في وصف عقائد الهندوسيين، إذ قضى في الهند نحو أربعين عاماً لكي يدرس شرائعهم وعاداتهم في الزواج والطعام والأعياد والمعتقدات الدينية–الروحية والأعياد وخصائص اللغة. ورأى فيه كارل بروكلمان[19]: (أهم ما أنتجه علماء الإسلام في ميدان معرفة الأمم). أما **المسعودي** فلُقِّب ب "هيرودوت العرب" إذ جاب العالم ودوَّن ملاحظات دقيقة حول السلالات البشرية والتنوع الثقافي في كتابه "مروج الذهب." اسمه الكامل "أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي" عاش بين عامي 869–957 م، وهو مؤرخ وجغرافي ورحالة، عمل في التاريخ والجغرافيا وعلوم الطبيعة والفلسفة، من أبرز مؤلفاته "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ولقد تأثر به وبعلمه ابن خلدون وغيره من العلماء المسلمين. كان له دورٌ هام في اكتشاف أمريكا، إذ دون أول اكتشاف إسلامي للقارة الأمريكية من خلال تدوين الرحالات التي كانت تنطلق من الأندلس في البحار وكان له دور في رسم الخرائط التي أدرجت فيها القارة الأمريكية وكانت تدعى (الأرض المجهولة). ولقد استفاد من خرائطه الرحالة الإسباني "كريستوفر كولومبوس" في رحلته الشهيرة لاكتشاف أمريكا. ويؤكد

[17] كتاب "الْمُقَدِّمَة" أو "مقدمة ابن خلدون" هو كتاب ألفه المؤرخُ ابْنُ خلدون عام 1377 قدّم فيه رؤية حول التاريخ العالمي.

[18] محمد بن أحمد البيروني ولد عام 973 م في مدينة غزنة في أفغانستان وتوفي عام 1048 م. كان عالماً موسوعياً، إذ درس علم الإنسان والفلك والجيولوجيا والتاريخ والرياضيات والطب والفلسفة والصيدلة والفيزياء.

[19] كارل بروكمان هو مستشرق ألماني (1868–1956 م) درس اللغة العربية والسريانية والآرامية واللغة العبرية واليونانية واللاتينية.

المؤرخون على أن كولومبوس كان يملك نسخاً من خرائط المسعودي وأنه اعتمد عليها في مسار رحلته فكانت سبباً في اكتشافها.

**دراسة "مالينوفسكي" في "جزر تروبرياند":**

تعد دراسة مالينوفسكي (عام 1915) من أولى الدراسات الأثنوجرافيّة في التاريخ الحديث، إذ درس مالينوفسكي في بدايات القرن العشرين سكان جزر تروبرياند، وعاش في جزيرة مايلو لعدة سنوات وتعلم لغة هذه القبيلة وتفاعل مع سكان الجزيرة بشكل يومي. وضع مالينوفسكي من خلال دراسته الاثنوجرافية عن سكان جزر تروبرياند معياراً جديداً في البحث الميداني والاثنوجرافي. لقد كان رائداً في ممارسة الملاحظة بالمشاركة، ولا يزال تأثيره على علم الإنسان ملموساً بقوة حتى يومنا هذا بعد أكثر من مئة عام على نصبه خيمته لأول مرة في جزيرة مايلو، ثم وضع مالينوفسكي عام 1922 كتاباً عن تجربته الميدانية في هذه الجزر[20].

إن جزر تروبرياند هي أرخبيل من الجزر يقع في الجانب الجنوبي الشرقي من بابوا غينيا الجديدة. وكان هدف هذه الدراسة الأثنوجرافية هو فهم الجوانب غير الملموسة للحياة اليومية لدى القبيلة، ومن أهمها فهم نشاط تبادل الهدايا الذي يقوم به أفراد القبيلة، والذي يُسمى "كولا". وهو نظام معقد للتبادل قائم على المعتقدات السحرية والتقاليد والواجبات والالتزامات. ولفهم الجوانب النفسية الكامنة وراء أنماط التبادل المختلفة السائدة في مجتمع تروبرياند، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن أفراد القبائل يولدون برتبة ومكانة اجتماعية محددة موروثة، لا يمكن تغييرها، ولا ترتبط بالممتلكات المادية. وتنعكس هذه الهرمية الاجتماعية، إلى جانب قواعد القرابة الصارمة، في أنظمة التبادل. إذ يُتوقع من ذوي الرتب أو الثروة الأعلى مشاركة ممتلكاتهم، مُظهرين بذلك كرمهم وتفوقهم في آنٍ واحد. أما القرويون التابعون، فيقدمون هدايا الحصاد "بوكالا" كدليل على الخضوع لرئيسهم. فيرد الرئيس

[20] Malinowski, B. (1922). *Argonauts of the western pacific*. Routledge, UK.

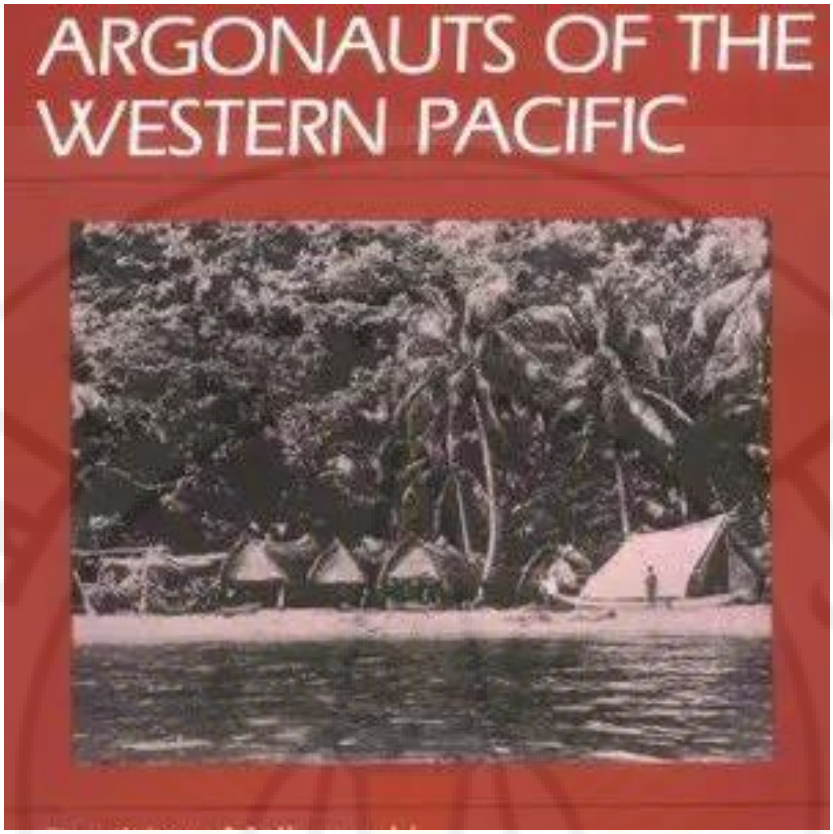
الجميل بتقديم هدايا رمزية لهم. كما يقدم إخوة المرأة المتزوجة هدايا الحصاد "أوريغوبو" لزوجها. ويرد الزوج الجميل أحياناً بتقديم هدايا رمزية "يولو" أقل قيمة. وتعد هذه الطريقة في تبادل الهدايا وسيلة لتوفير الرعاية الاجتماعية أو التأمين، فهي تُعزز الروابط بين العائلات والقبائل. تُمكّن هدايا "بوكالا" و"أوريغوبو" المتلقين من تكديس الثروة على شكل طعام يُعرض بفخر في المخازن. ويُفهم من ذلك أنه إذا احتاج المُعطون إلى مساعدة بسبب مصيبة ما، فإن المتلقين مُلزمون بمشاركة مؤنهم معهم (يشبه ذلك نظام الرعاية الاجتماعية والتأمين الحديث). ولأن هذه القبائل لا تمتلك نظاماً نقدياً، فإنها تملك عوضاً عن ذلك نظام تبادل هدايا محدد لتسوية الالتزامات الاجتماعية. يُطلق على هذا النظام اسم "مابولا" (أي السداد)، ويعمل بنفس طريقة تحديد الأسعار في الغرب. إذ تُنظِم "المابولا" الهدايا المستحقة مقابل تقديم خدمات مُحددة. لكن الأهم من ذلك، أن العلاقات والروابط الاجتماعية هي المؤشرات الرئيسية لمكانة الفرد في القبيلة. إذ يحرص أفراد القبائل على تنمية شبكة العلاقات الاجتماعية وتحسينها من خلال تبادل الهدايا الذي يُنشئ "رأس مال العلاقات"[21]. ويُعد مبدأ المعاملة بالمثل أساسياً في هذه العملية. فعند تقديم هدية، ينشأ التزام اجتماعي بين المُهدي والمُتلقي. وتشكل الروابط الاجتماعية الناتجة عن التبادل داخل القبيلة أساساً لهيبة الفرد، والتي يمكن تعزيزها بالتفوق في تبادلات "كولا" بين القبائل. وهكذا فإن "الكولا" هي أيضاً طقوس تبادل تحف قيّمة بين القبائل التي تسكن هذه الجزر، فتقوم هذه الطقوس على تبادل "السولافا" وهي قلائد طويلة مصنوعة من الصدف الأحمر، و"الموالي" وهي أساور للذراع مصنوعة من الصدف الأبيض.

ويخضع تبادل الهدايا لقواعد دقيقة، تشمل ممارسة طقوس سحرية وإقامة شراكات مدى الحياة بين رجال من قبائل مختلفة. ويتم تعريف المشاركين وتزكيتهم من قبل أقاربهم المقربين، ثم تُورَّث شراكات الكولا من جيل إلى

[21] Mascia-Lees, F. E. 2011, A companion to the anthropology of the body and embodiment, Wiley-Blackweel, Chichester, West Sussex, U.K, Malden, MA.

جيل. ولهذه الهدايا أيضاً دور في صون السلام، فمن الواضح أن العناصر الأكثر أهمية في الكولا تتعلق بالتبادلات التي تحدث بين القبائل في الجزر المختلفة. إذ تتمثل الوظيفة الرئيسية للكولا في إرساء نظام اجتماعي من خلال بناء شبكة من العلاقات الاجتماعية السلميّة بين المجتمعات القبليّة التي لا دولة لها، وبالتالي تعزيز التبادل التجاري فيما بينها. هكذا نرى، أن الكولا نشأت لنفس السبب الذي أدى إلى إنشاء الاتحاد الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية. إذ يكمن هدفها في بناء روابط متينة بين القبائل في المنطقة وضمان السلام. وهذا أمر بالغ الأهمية في منطقة تضم قبائل عدوانية مثل قبيلة دوبو، التي روعت جيرانها بممارسات مثل قطع الرؤوس وأكل لحوم البشر. لا تتعلق هدايا الكولا فقط بالحصول على مكانة اجتماعية مرموقة ولكن أيضاً يتعلق الأمر بإنشاء روابط متينة مع القبائل الأخرى، وهذا مفهوم مشابه للاتحاد الأوروبي، الذي يدعم حرية التنقل والتجارة الحرة بين دول أوروبا، ويمول عدداً من البرامج بهدف بناء روابط بين الدول الأعضاء. يمكننا **الاستنتاج** من هذه التجربة ما يلي:

تشكل أنظمة تبادل الهدايا أساس بُنية مجتمع تروبرياند، فهي طريقة مختلفة للحصول على المواد والخدمات (طريقة تبادل الهدايا عوضاً عن دفع النقود). وهي تضمن الرعاية الاجتماعية في القبيلة (من خلال "سداد" الهدايا عند الحاجة) وهي أيضاً طريقة لتوحيد القبائل المختلفة في المنطقة من خلال روابط التبادل والالتزام التي تضمن استمرار السلام في المنطقة وتُعزّز التجارة.




**غلاف كتاب مالينوفسكي بعنوان:*'Argonauts of the Western Pacific*" الذي صدر عام 1922، ويعني العنوان" البحارة الأبطال في غربي المحيط الهادي.**



**صورة مالينوفسكي مع سكان جزيرة مايلو.**

**المحاضرتان الثالثة والرابعة:**

# علم الاثنوجرافيا وعلم الآثار (الأثنوجرافيا الأثرية)

**مقدمة:**

كما أشرنا في المحاضرات السابقة فإن **الأنثروبولوجيا الثقافية** تنقسم إلى عدة فروع، اختص كل منها بمجالات اهتمام دقيقة رغم تشابهها، وسوف نستعرض أهمها فقط بالنسبة إلى علم الآثار:

1. **الإثنولوجيا (Ethnology)** التي تعني: علم الشعوب ومميزاتها الثقافية (تتألف من مقطعين: Ethnos أي شعب أو قوم، وLogos أي علم). ويبحث علم الإثنولوجيا في الثقافات الحالية (أي المعاصرة) لمختلف أجناس البشر. يقوم علماء الإثنولوجيا بالدراسة العلمية القائمة على التحليل والتعليل والمقارنة لثقافات الشعوب. وتستعين الإثنولوجيا بمعطيات علم الأثنوجرافيا (وصف الشعوب)، إذ يقوم علماء الإثنولوجيا بالدراسة العلمية القائمة على التحليل والتعليل والمقارنة لثقافات الشعوب التي تم جمعها في الميدان من قبل الإثنوجرافيين.
2. **الأثنوجرافيا (Ethnography):** التي تعني وصف الشعوب (تتألف من مقطعين: **Ethnos** أي شعب أو قوم، و**Graphy** أي تصوير/وصف أو كتابة)، إذ يُعنى هذا العلم بوصف العناصر الثقافية والمادية والروحية وغيرها.
3. **علم الآثار (Archaeology)**، وخصوصاً آثار عصور ما قبل التاريخ، الذي يبحث في الأصول الأولى للثقافات والأطوار الثقافية المنقرضة في حين أن علم الإثنولوجيا يبحث في الثقافات المعاصرة لمختلف الأجناس البشرية.

4. **علم اللغات (Linguistic):** يهتم باللغات، وخصوصاً أصول اللغات وتطورها، ومدى القرابة فيما بينها من حيث الأصول التاريخية أو النحتية والصرفية. تنعكس هذه المعرفة على معرفة مدى تقارب أو تباعد الشعوب التي تتكلم لغات متشابهة أو مختلفة في أصولها التاريخية أو في القواعد العامة، كالنحو والصرف وغيرها. تُعدُّ اللغة إلى جانب كونها أداة للتفكير ووسيلة للاتصال والتفاهم بين أبناء الجنس البشري (Homo) فهي أيضاً ظاهرة اجتماعية ثقافية، أوجدتها المجتمعات البشرية كعنصر من عناصر الثقافة[22].

5. **علم الأثنوجرافيا الأثري (Ethnoarchaeology)** هو الدراسة الاثنوجرافية للشعوب لأغراض أثرية، وعادةً ما يتم ذلك من خلال دراسة البقايا المادية للمجتمع التي من الممكن أن تشابه البقايا المادية للشعوب القديمة[23]. تُساعد الدراسات الاثنوجرافية الأثرية علماء الآثار في إعادة بناء أنماط الحياة القديمة من خلال دراسة التقاليد المادية وغير المادية للمجتمعات الحديثة. كما يُساعد في فهم كيفية صنع الأشياء والغرض من استخدامها (كصناعة الفخار والأدوات المعدنية والأدوات الحجرية وغيرها)[24]. وبخلاف البيانات المستمدة من المصادر الاثنوجرافية والتي قد تغفل أحياناً الثقافة المادية والتكنولوجيا تماماً، يهدف البحث الاثنوجرافي الأثري صراحةً إلى مراقبة السلوكيات وتوليد مجموعة بيانات قابلة للتطبيق بسهولة أكبر على البقايا المادية الموجودة في السجل الأثري. يوجِّه هذا الانتباه نحو السياقات الاجتماعية والمادية لتقنيات الإنتاج، وتصنيع القطع الأثرية، واستخدامها وانتشارها[25]. وبذلك، من الممكن أن يستنتج علماء الآثار أن المجتمعات القديمة استخدمت نفس التقنيات التي

---

[22] جباوي، علي عبد الله، 1997، ص. 30–31.

[23] David and Kramer 2001.

[24] Lane, Paul. *Barbarous Tribes and Unrewarding Gyration? The Changing Role of Ethnographic Imagination in African Archaeology*. Blackwell.

[25] Iles, L. and Childs, S. T., 2014, "Ethnoarchaeological and Historical Methods", *in* B. W. Roberts, C. P. Thornton (eds.), *Archaeometallurgy in Global Perspective*, Springer Science and Business Media, New York p. 194.

استخدمتها نظيراتها الحديثة إذا كانت لاتزال تعيش في ظل ظروف بيئية مماثلة. يقوم علم الأثنوجرافيا الأثري (وهو فرع من فروع علم الأثنوجرافيا) بإضفاء الطابع الرسمي على طريقة الاستدلال والقياس من أجل الحصول على تفسير للسجل الأثري، من خلال رصد العلاقات المُحتملة بين الثقافات القديمة والثقافة المادية في المجتمعات الحديثة، بهدف سد الفجوة بين "الماضي والحاضر.

**علاقة علم الأثنوجرافيا بعلم الآثار:**

لا يقتصر عمل علماء الآثار على دراسة المجتمعات الميتة والمدفونة، وقد يظن المرء أن علماء الأثنوجرافيا هم الأكثر تأهيلاً لدراسة المجتمعات المعاصرة، لكن هذا ليس ضرورياً. تتضمن الأثنوجرافيا الأثرية العمل الميداني بين شعوب اليوم من قبل علماء الآثار الذين يبحثون في أسئلة ذات صلة بتحليل القطع الأثرية القديمة والثقافة المادية. الأمر الذي يملأ فجوة لم تعالجها الأثنوجرافيا التقليدية بشكل أساسي. يعمل الباحث في الأثنوجرافيا في مواضيع شائعة عادةً عند الشعوب المعاصرة البدائية، كالدين والسحر والسياسية وغيرها، أما عالم الآثار فيعمل في الحقل الأثري ويستخرج مخلفات الثقافة المادية للإنسان وهي عبارة عن حجارة وعظام وفخار وأبنية وغيرها من الأدوات التي يتجاهلها الأثنوجرافيون أثناء تسجيلهم للأعراف الاجتماعية وعادات الشعوب المعاصرة. لذلك فإن التكامل بين العمل الاثنوجرافي والعمل الأثري يتيح لنا الحصول على المعلومات الشاملة حول الماضي، من خلال العيش في المجتمعات التقليدية، ومراقبة وتسجيل ما نراه، وجمع البيانات اللازمة للمساعدة في فهم القطع الأثرية القديمة والأشخاص الذين صنعوها.

ومن الجدير بالملاحظة أن البحث الاثنوجرافي الأثري ليس محاولة بسيطة لتسجيل عدد الأواني أو الماعز أو لوحات دِراسة الحبوب (أدوات فصل الحبوب عن القشور)، بل يبدأ بسؤال، أي بفرضية يجب اختبارها بطريقة

منهجية باستخدام التحليل الكمي (الطريقة المستخدمة للتقييم وفهم السلوك باستخدام المعلومات الإحصائية)، واستراتيجيات أخذ العينات، والملاحظة.

**ظهور وتطور دراسات الأثنوجرافيا الأثرية:**

تعود بدايات العمل في مجال الاثنوجرافيا وربطها بعلم الآثار إلى القرن التاسع عشر. إذ قام علماء الآثار بوضع ملاحظات حول الصناعات التقليدية والتقنيات القديمة في المشرق العربي. منهم الباحث الألماني "جات/Gatt" (1885) الذي درس ووثق عمل الخزافين في غزة[26]. ومنهم أيضاً مُنقب موقع "تل عين الشمس"[27] بالقرب من مدينة القدس الذي درس أعمال الخزافين المعاصرين في مدينة رام الله واعتبرها هامة لفهم الأدوات الفخارية القديمة في موقع عين الشمس (الواقع في قرية **بيت أبان العربية**")[28]. كذلك قامت المنقبة توفنيل/Tufnell عام 1961 بنشر الفخار المكتشف من موقع تل الدوير (مدينة لاخيش القديمة، مدينة كنعانية في فلسطين)[29]، دمجت فيه ملاحظاتها عن الخزافين التقليديين من المملكة العربية السعودية والمشرق العربي[30]. وكذلك قام بادي/Badè (1931) بتصوير فوتوغرافي لصناعة الفخار الفلسطيني المعاصر بهدف فهم الفخار المُكتشف من "تل النصبة" الأثري في فلسطين بشكل أفضل.[31] "

[26] Gatt, G. 1885, Industrielles aus Gaza, Zeitschrift des Deutshen Palastinavereins 8, p. 69-79.

[27] Grant, E. 1931, "Ain Shems Excavations", Palestine 1928-1931", Haverford College, Haverford, p.34.

[28] يقع تل عين الشمس في قرية فلسطينية عربية تبعد نحو 30 كم غربي مدينة القدس وهي قرية بيت أبان الفلسطينية، هُجِّر سكانها العرب وأقيمت فيها مستوطنة إسرائيلية عام 1950 أطلق عليها اسم بيت شميش (بيت الشمس).

[29] يقع تل الدوير على بعد 44 كم جنوب غربي القدس وفيه تقع آثار مدينة لاخيش الكنعانية.

[30] Tufnell, O. 1961, "These were the Potters", Notes on the Craft in Southern Arabia, p. 26-36, in Annal of Leeds University Oriental Society, Vol. II (MacDonald, J. ed), Brill, Leiden.

[31] في الضفة الغربية في مدينة رام الله، تقع إلى الشمال من مدينة القدس بنحو 15 كم.

وفي مطلع القرن العشرين قام الباحث "جيسي والتر فيوكس / Walter Fewkes" الذي يُعدُّ أول عالم عمل في مجال الاثنوجرافيا الأثرية بالعمل مع قبيلة الهوبي التي تعيش في جنوب غربي أمريكا[32]، فدرس مجتمعات السكان الأمريكيين الأصليين الذين عاشوا في المنطقة في مطلع القرن العشرين. وبعد أن تعرَّف على أساطير هجرة قبيلة الهوبي وترحالهم في أماكن مختلفة في الجنوب الغربي من القارة الأمريكية، قام فيوكس بالتنقيب في مواقع يُعتقد أنها كانت مسرحاً لأحداث مهمة في الرحلة على طول طريق الهجرة. ولكن التنقيب لم يكشف عن أي شيء يتعلق بالأساطير. لم يكن هناك دليل على المجمَّعات، ومعسكرات إقامة هؤلاء الرُّحل، أو المعارك التي خاضوها وغيرها من الأحداث المروية عنهم. ولكن أفضت هذه الدراسات إلى الاهتمام بتصنيع الفخار من قبل هؤلاء السكان الأصليين المعاصرين ومقارنتها بأدوات الفخار المُكتشفة في المواقع الأثرية.

كما تُعدُّ دراسة برايان هايدن عام 1987 من الأمثلة الهامة في الدراسات الاثنوجرافية الأثرية. إذ درس فريقه صناعة أحجار الرحى التي تُستخدم في طحن الحبوب (تُسمى مجرشة) في أمريكا الوسطى، مُقدماً رؤى قيّمة حول صناعة أحجار الرحى في عصور ما قبل التاريخ. وقد ركزت العديد من الدراسات الأخرى على صناعة واستخدام الخزف، والعمارة، والغذاء، والنسيج، وأنواع أخرى من الثقافة المادية. تقتضي مثل هذه الدراسات بالضرورة أعمالاً ميدانية اثنوجرافية طويلة الأمد. ومن الأمثلة الهامة في التاريخ المعاصر دراسة الباحث هيربيش الذي قام بدراسة طريقة صنع الفخار في قبيلة "اللوو" التي تعيش في غربي كينيا[33]. تعتمد الأثنوجرافيا بشكل عام وعلم الاثنوجرافيا الأثري بشكل خاص على **القياس، وهو في جوهره، تطبيق سلوك مُلاحَظ على سلوك غير مُلاحَظ،** ولعله من أكثر أدوات البحث استخداماً في التفسير الأثري. ولكن المقارنات لا تُقدّم سوى

[32] قبيلة من السكان الأصليين لأمريكا يعيشون بشكل رئيسي في محمية هوبي شمال شرق أريزونا بالولايات المتحدة الأمريكية .يُعرفون بثقافتهم الغنية، ونمط حياتهم المرتبط بالزراعة والحرف اليدوية.

[33] **Herbich, I.** 1987 "Learning patterns, potter interaction and ceramic style among the Luo of Kenya". *The African Archaeological Review* 5, p.193-204.

استدلالات، فهي ليست إجابات قاطعة ودقيقة لأسئلة تتعلق بشعوب قديمة وطرائق حياتهم والتقنيات التي استخدموها في انتاج أدواتهم. ويُعدُّ العالم ماكول (McCall) من أهم علماء الأثنوجرافيا في الزمن المعاصر، إذ دعا إلى اتباع منظور مقارن في دراسته العابرة للثقافات، والتي تناولت شعوب غامو وكونسو في جنوب ووسط إثيوبيا، وقبائل الشوكشي في سيبيريا، وقبائل المايا في مرتفعات غواتيمالا والمكسيك، وقبائل الشيتا التي تعيش في لاية بارانا في جنوبي حوض الأمازون، واستخداماتهم للأدوات الحجرية[34].

**تحديات البحث:**

قد يواجه الباحثون أشخاصاً منخرطين في نشاط تقليدي ذي صلة بطريقة ما بأنماط الحياة القديمة. وبينما يمكن أن ينتج عن ذلك معلومات مثيرة للاهتمام ومفيدة، فإنه لا يوجد ضمان بأن البيانات قابلة للتطبيق على المجتمع القديم قيد البحث. فعلى سبيل المثال، ما هي قيمة مقارنة أواني العصر البرونزي القديم المصنوعة يدوياً بأواني مصنوعة بالعجلات اليوم، حتى لو كانت مصنوعة في نفس الموقع أو في محيطه القريب؟ كما أن المقارنة تكون ضعيفة بشكل خاص إذا كان الخزافون يعملون بمستويات مختلفة من التنظيم؛ على سبيل المثال، هناك فرق كبير بين الخزافين الذي يعملون في المنزل لإنتاج أدواتهم الخاصة وبين الحرفيين المتخصصين في إنتاج أنواع مختلفة من الأدوات المُعدّة للبيع الداخلي أو للتصدير (ورشات متخصصة). إن النهج التاريخي المباشر، أو الفكرة القائلة بأن العيش والعمل المعاصر في المنطقة هو أفضل نموذج لفهم الآثار التي صنعها القدماء، هي فكرة غير دقيقة[35]. ولعله من الملاحظ أن الارتباط (أي التشابه) بين الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات القديمة والمعاصرة يفوق بكثير أهمية الموقع الجغرافي نفسه. فالفخار المصنوع يدوياً

[34] McCall, G. S. (2012). Ethnoarchaeology and the organization of lithic technology. Journal of Archaeological Research, 20/2, p.157-203.
[35] London, G. 2000, "Ethnoarchaeology and Interpretations of the Past", Near Eastern Archaeology 63/1, p. 3.

في فلسطين القديمة يشترك في القواسم المشتركة مع الفخار التقليدي المصنوع يدوياً في قبرص اليوم وفي أماكن أخرى، أكثر مما يشترك مع الفخار المصنوع بالعجلات في غزة على سبيل المثال.

**منهجية العمل الاثنوجرافي الأثري:**

تتجلى الضرورة المُلحّة لهذا النوع من العلوم في أن طرق الحياة الحديثة (المواد البلاستيكية والكهرباء والسلع المستوردة) تساهم في انقراض المواد والأدوات التقليدية، فلذلك يعد هذا النوع من البحوث أحد أقوى الأدوات للمساعدة في التعرف على العلاقة بين السلوك البشري والثقافة المادية. ويتطلب تنفيذ مشروع ناجح لهذه البحوث تحقيق عدة نقاط:

1. التخطيط وتحديد الهدف، ويجب أن تكون معالجة قضايا وإشكاليات البحث الأثري هدفاً رئيسياً للدراسة بدلاً من القيام بدراسة تعتمد على التواصل بشكل عرضي مع أشخاص يقومون بممارسة حرفة تقليدية ما بالقرب من موقع تنقيب معين. يتطلب ذلك تخطيطاً جيداً واختيار مجتمع مناسب يوفر المواد اللازمة لمعالجة القضية المطروحة، سواء كانت ورشات ذبح الحيوانات مثلاً، وما يرتبط بها من أنماط توزع العظام والتخلص منها، أو حجم المنزل ومحتوياته فيما يتعلق بحجم العائلة (عائلة نواة أو عائلة ممتدة) أو كثافة السكان وما إلى ذلك...

2. أن يكون العمل الميداني طويل الأجل ولا يعتمد على الزيارات قصيرة الأمد، لأن الأول يتيح للباحث إمكانية ملاحظة الاختلاف داخل مجتمع معين، مثلاً: في حين قد يلاحظ المرء النساء صانعات الفخار (الخزّافات) لأسابيع، ويستنتج أن الصناعة بالكامل في أيدي الإناث، فإنه سيتفاجأ أنه بحلول الأسبوع الرابع، قد يبدأ عدد قليل من الرجال في العمل (ومثال ذلك صناعة الخزف في باجاديان في الفلبين). ويجب أن يتضمن العمل الميداني طويل الأجل أبحاثاً إقليمية، بدلاً من دراسة مقتصرة على مجتمع واحد. ففي قبرص، على سبيل المثال، ينتج الخزافون التقليديون في كورنوس (قبالة الساحل الجنوبي الغربي لقبرص) عدداً قليلاً ومحدوداً من

الجرار، في حين أنه في مجتمعات جبال ترودوس (أكبر سلسلة جبال في قبرص)، التي تبعد عنها مسافة ثلاث ساعات بالسيارة فقط، فإن الجرار تُنتج بكمية كبيرة جداً، نظراً للاحتياجات المختلفة للزبائن وهم من مناطق ريفية معزولة[36]. يمكن للدراسات طويلة المدى والمنهجية أن توفر للباحث قاعدة بيانات مفيدة لوضع الفرضيات واستنتاج السلوك البشري.

3. وضع استراتيجية صحيحة في أخذ العينات: تتطلب استراتيجية أخذ العينات في العمل الميداني تضمين عينة تمثيلية من القطع الأثرية ومن الأشخاص قيد الدراسة، إذ يقوم الباحث في الميدان بمراقبة وتسجيل عمل مختلف الأشخاص، سواء كانوا خزافين أو رعاة أغنام أو نساجين، إلخ. وعدم إغفال أي شريحة منهم (تضمين الذكور والإناث من جميع الأعمار والأصول والحالة العائلية)، وهذا يعني الانتباه إلى قضية الإحاطة الكاملة بالعينات التي تُمثل الذخيرة للموضوع قيد الدراسة. بهذه الطريقة يمكن جمع بيانات كافية لتحديد العوامل الاجتماعية وأنماط السلوك البشري التي تساهم في فهم الاختلافات التي يكتشفها علماء الآثار في القطع الأثرية.

4. البحث عن بيانات بشكل منهجي بدلاً من الملاحظات الانطباعية: إذ تعتبر المراقبة والقياس والتسجيل بدلاً من المقابلة التقليدية هي الاستراتيجيات المفضّلة لجمع المعلومات. على الرغم من أن المقابلات التقليدية قد تكون في بعض الأحيان ضرورية، ولكن في كثير من الأحيان يمكن أن تكون الإجابات موجّهة إلى ما يُعتقد أنه هام بالنسبة إلى عالم الآثار، أي أنها قد تكون إجابات منقوصة أو مغلوطة. كما أن القياسات التي يتم جمعها بطريقة منهجية تُسّهل المقارنة مع البيانات الأخرى على عكس البيانات الوصفية والانطباعية المسجلة بطريقة عشوائية. وكذلك فإن التركيز على الأساليب الكمية يمكّن من إجراء دراسات مماثلة واختبارها في أماكن أخرى.

[36] London, G. A. 1989, p. 221.

5. يتطلب إجراء هذا النوع من الأبحاث تصميم بحثي مُنشأ بعناية: اختيار مجتمع مناسب، ووقت مقصود في الميدان، ومعرفة باللغة، ومهارات ملاحظة حادة، وخبرة في الثقافة المادية القديمة، بدلاً من التكهن بشأن استخدام القطع الأثرية أو المباني غير المكتملة التي يعثر عليها في المواقع. وهكذا يستطيع عالم الآثار أن يرى الأداة وهي قيد الاستخدام والشخص الذي صنعها أو الذي يستخدمها. لأن الهدف من علم الآثار هو التعرف على الانسان، وليس الأواني أو جدران المباني. لقد أثبت علم الأثنوجرافيا الأثري أنه استراتيجية بحث هامة في الوقت المعاصر، فالصناعات والحرف والتقنيات التقليدية تكاد تنقرض لأن الكثير من الأدوات يتم استبدالها بالآلات الحديثة. فيُعدُّ عمل علماء الآثار ذو المنهج الاثنوجرافي امتيازاً ومسؤولية، لأنه يراقب ويسجل هذه التقنيات التقليدية التي نجت، على الأقل حتى نهاية القرن العشرين.

**المحاضرة الخامسة**

## الاتجاهات العامة للدراسات الأثنوجرافيّة الأثرية

تلعب الأثنوجرافيا دوراً هاماً في فهم الحاضر والماضي معاً من خلال جمع المعلومات حول الثقافات والمجتمعات، وكيفية تطورها وفهم عمليات تكيّفها مع مختلف أنواع التحديات، كالتعامل مع البيئة وتأمين مصادر الحياة وفهم تقنيات تصنيع الأدوات وطُرق الري والزراعة التقليدية. وكما أشرنا سابقاً فإن الأثنوجرافيا تؤدي دوراً محورياً في فهم التاريخ البشري، إذ تُسهم في فهم السياقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية للسلوك البشري. وقد فتح التركيز المتجدد على علم الأثنوجرافيا الأثري في العقود القليلة الماضية إمكانياتٍ كبيرة لمعالجة مجموعة واسعة من القضايا المتعلقة بجميع أنواع المواد والأدوات والأنشطة البشرية. فتم تصميم الدراسات من أماكن مختلفة حول العالم للتركيز على قضايا متنوعة تنشأ عن الاهتمامات الأثرية المتعلقة بماضي الإنسان. هناك إذاً الكثير والعديد من المواضيع والمسائل والإشكاليات التي يهتم بها هذا النوع من العلوم، نقدم فيما يلي نبذة عن أمثلة منها:

1. دراسة الطعام لتفسير كيفية توزع العظام في المواقع الأثرية: يعكس نموذج الطهي القائم على لحوم الحيوانات قرارات الإنتاج والتسويق التي يتخذها الرعاة. لذلك فإن الأبحاث الاثنوجرافية الأثرية تقدم نموذجاً لتفسير التوزع المكاني لبقايا العظام الموجودة في المواقع الأثرية.
2. دراسات تتعلق بكثافة السكان والزراعة: تُعدّ مشكلة تقدير حجم الاستيطان وكثافة السكان اعتماداً على البقايا المادية مشكلة متكررة في حقل التنقيب. وقد يسمح التحليل الدقيق للمساكن المهجورة في بعض

القرى المعاصرة بوضع تقدير لكثافة السكان، يمكن استخدامها وتطبيقها على موقع أثري مُحدّد[37]. ومن جهة أخرى، يمكن أن تفيد الدراسات الاثنوجرافية الأثرية من استكشاف العلاقة بين تدجين الماشية والزراعة من خلال البحث في آلة دِراسة الحبوب. وهي عبارة عن لوح من الخشب مرصع على وجهه الأمامي بالحجارة أو المعدن، تجرها الحيوانات فوق الحبوب لفصلها عن القشرة. إن زراعة الحبوب، هو عنصر مهم في اقتصاد المجتمعات القديمة، يتم التعرف عليها من خلال دراسة وتحليل عينات البذور المُكتشفة في التنقيب. ولكن ألواح دِراسة الحبوب وما يرتبط بها من تقنيات حجرية هي أيضاً مكونات أساسية في انتاج الحبوب. إذ لعبت ألواح دِراسة الحبوب والمطارق، إلى جانب تقنياتها الحجرية، دوراً محورياً في تطور الممارسات الزراعية في منطقة البحر المتوسط. كانت هذه الأدوات جزءاً لا يتجزأ من الأنظمة الزراعية المبكرة، وساهمت بشكل كبير في رفع كفاءة معالجة الحبوب ودعم نمو المجتمعات. لذلك فإن دراسة ألواح الدِراسة في القُرى المعاصرة التي لازالت تستخدم هذا النوع من الآلات تساعد في تقديم بيانات عن استخدامها وتقنيات صنعها وعلاقتها بالزراعة. وكان استخدام ألواح الدِراسة، المعروفة باسم "تريبولوم" (Tribulum) في العصر الروماني، ابتكاراً أساسياً سمح بمعالجة كميات كبيرة من الحبوب، وكان ضرورياً لزيادة الإنتاج الزراعي. تُقدم دراسة هذه الأدوات وآثار استخدامها رؤى قيّمة حول الابتكارات التكنولوجية لمجتمعات العصر الحجري الحديث وانتشار التقنيات الزراعية من الشرق الأدنى إلى أوروبا.

[37] Yerkes, R. W. 2000 “Ethnoarchaeology in Central Cyprus: Interdisciplinary Studies of Ancient Population and Agriculture by the Athienou Archaeological Project”, Near Eastern Archaeology, 63/1, p. 20-34.




**لوح دِراسة الحبوب**

3. دراسات تفسر طريقة تكيّف السكان في الجزر القاحلة (ليس فيها مصادر مياه): إذ تتولد لدى علماء الآثار الذين ينقبون في مستوطنات تقع في جزر قاحلة صغيرة في البحر (مثل بعض جزر البحر المتوسط في قبرص مثلاً) أسئلة حول سبب استقرار الناس هناك وكيفية تعاملهم مع مصادر المياه غير الكافية والبعيدة عن المستوطنات القديمة. ولطالما تساءل الآثاريين عن كيفية بقاء القدماء وحياتهم في المناطق القاحلة (كالصحاري أو الجزر). يمكن للدراسات الاثنوجرافية تقديم فرضيات تشرح قدرة الإنسان على التكيف مع الطبيعة القاسية، إذ فسرت مثلاً دراسات اثنوجرافية أثررية في جزيرة دوكوس

في اليونان[38] قدرة الإنسان على التكيف بنجاح مع نقص المياه العذبة في هذه الجزيرة التي تفتقر إلى ينابيع، من خلال دراسة عائلات معاصرة من الرعاة المحليين وفهم كيفية إدارتهم للمياه، وغيرها من أنشطة الكفاف في بيئة قاسية. تناولت الدراسة كيفية إدارة قطيع الأغنام، واستخدام الموارد المحلية، وطريقة التواصل مع البر الرئيسي للحصول على الماء واستخدام الأدوات المناسبة لذلك، فقدمت بذلك نماذج لفهم التكيف مع بيئات الجزر البحرية وهي فرضيات يُمكن الاستعانة بها لتفسير الاستيطان القديم في مناطق قاحلة.

4. دراسات تتعلق بالصناعات والحرف والتقنيات القديمة، مثل تقنيات بناء أفران الخبز والطهي، والنسيج والحياكة، أو عصر الزيوت وغيرها. لكن من أكثر الدراسات شيوعاً هي قيام العلماء بدراسة وتوثيق عمل الخزافين في مناطق وبيئات عمل مشابهة للمجتمعات القديمة. تُعدُّ الدراسات الاثنوجرافية الأثرية التي تهتم بالصناعات التقليدية والحرف اليدوية هي التوثيق الوحيد لصناعات وتقاليد كادت أن تختفي تماماً.
5. دراسات الفخار: إن التركيز العالمي على دراسات تختص بالفخار أمر مفهوم بالنظر إلى أن الفخار هو القطع الأثرية الأكثر وفرة التي يتم العثور عليها في المواقع في أجزاء كثيرة من العالم. ومن المعروف أن دورها كبير جداً في عمليات تأريخ الاستيطان القديم ومراحل تطوره. لذلك فقد ركزت العديد من الدراسات الاثنوجرافية الأثرية على عمليات صناعة الفخار التقليدية في كثير من المجتمعات المعاصرة التي لازالت تنتج الفخار. وقد دلت بعض تلك الدراسات على أن تقنيات التصنيع والزخرفة المستخدمة اليوم قد تكون مماثلة تقريباً للتقنيات المستخدمة في الماضي في بعض مواقع تركيا.

[38] Kardulias, P.N. 2000, "The Ethnoarchaeology of Adaptation on Arid Islands: A Study of Herders on Dokos Greece, Near Eastern Archaeology, 63/1 p. 35-45.

6. دراسات تتعلق بالبناء والهندسة المعمارية[39]: إذ يقوم عالم الآثار بتنقيب البقايا المعمارية، أي الأبنية ومحتوياتها، والتساؤل عما يمكن استنتاجه من مخلفات الثقافة المادية حول الوضع الاجتماعي، وعدد الأشخاص الذين استخدموا تلك الأبنية؟ فتفيد الدراسات الاثنوجرافية الأثرية التي تقوم بتحليل العمارة السكنيّة في قُرى سورية معاصرة، بمعرفة كيف تفيد الهندسة المعمارية والقطع الأثرية في تحديد الخصائص الاجتماعية والاقتصادية لبُنية الأسرة، وحجمها، وثروتها النسبية.
7. كذلك الأمر فإن الدراسات التي تهتم بالصناعات المعدنية وأساليب استخراج المعادن وتقنيات الصهر وتشكيل الأدوات المختلفة من المعادن المختلفة واستخداماتها الكثيرة في الحياة تعد من أهم القضايا التي اهتمت بها الأثنوجرافيا الأثرية مؤخراً.

[39] Aurenche, O. 1981. La Maison orientale. L'architecture du Proche Orient ancien des origines au milieu de quatrième millénaire. Paris: Geuthner.

**المحاضرتان السادسة والسابعة**

## دراسات أثنوجرافية أثرية في سورية (القرى الزراعية)

تجمع الأثنوجرافيا الأثرية بين الملاحظة الاثنوجرافية للمجتمعات المعاصرة والتحليل الأثري. ومن خلال دراسة الماضي، يُسهم هذا العلم في فهم أعمق للسلوك البشري والبنى الاجتماعية التي تُشكّله، كما يساعد على حل مشكلات معاصرة مثل قضايا التنمية والاستدامة.

يُعد التكامل بين علم الآثار وعلم الأثنوجرافيا (الدراسات الاثنوجرافية–الأثرية) من أهم مصادر البحث التي مكنت العلماء من فهم كيفية تطور الثقافات والمجتمعات. وتعد دراسات الباحثة "هيلغا سيدين" في سورية في ثمانينات القرن الماضي من أهم تلك الأبحاث من حيث التكامل الحقيقي بين علم الآثار وعلم الأثنوجرافيا، ومن حيث النتائج الهامة التي وصلت إليها[40]. إذ قامت الدراسة على مشروع يجمع بين علم الآثار وعلم الأثنوجرافيا لدراسة القرى السورية، وذلك من خلال دراسة قرى زراعية مهجورة وأخرى مأهولة حالياً في منطقتين جغرافيتين متباينتين في سورية. اهتمت الدراسة بعدة نواحي منها: أساليب البناء وخصائص العمارة السكنية المعاصرة، وتصنيع الأدوات الأساسية المستخدمة في الحياة اليومية، بهدف رصد انعكاسها المُحتمل في مواقع عصور ما قبل التاريخ. وقد أبرزت الاستنتاجات أهمية وضرورة مشاريع البحث المشتركة من هذا النوع لفهم المجتمعات الريفية في الماضي والحاضر معاً.

إن عصور ما قبل التاريخ هي حقبة طويلة جداً من الوجود البشري قبل ظهور الوثائق المكتوبة والتدوين، إذ تمتد لملايين السنين، تطور خلالها أسلافنا من مجتمعات بسيطة تعتمد على الصيد وجمع الثمار إلى مجتمعات

[40] Seeden, 1987, "Aspects of prehistory in the present world: Observations gathered in Syrian villages from 1980 to 1985", World Archaeology 17/2, p. 289-303.

زراعية معقدة، وصولاً إلى الحضارات المبكرة. يُتيح لنا علم الآثار نافذةً على هذا الماضي الذي كان عصياً على الفهم لولا البقايا المادية، مما يسمح لنا بإعادة بناء حياة وسلوكيات وتطورات أسلافنا الأوائل. ومن جهة أخرى، تُسلط دراسة قرى العصر الحجري الحديث في سورية ومقارنتها بالقرى السورية المعاصرة الضوء على كيفية استمرار بعض الأنماط الثقافية القديمة وتداخلها وتأثيرها على أنماط الحياة الحالية. وتشمل الأدلة مواقع أثرية، ودراسات اثنوجرافية، ودراسة الثقافة المادية من العصور الحجرية وصولاً إلى المجتمعات القروية الحديثة.

**استمرارية أنماط الاستيطان وبعض أساليب العمارة وإنتاج الأدوات في القرى السورية:**

غالباً ما تشغل القرى السورية مواقع كانت تاريخياً ملائمة للسكن البشري، لا سيما بالقرب من مصادر المياه كالينابيع والأنهار والواحات (أمثلة: واحة الكوم[41] ومنطقة وادي نهر الفرات). وقد أشارت التنقيبات الأثرية إلى أن هذه المناطق استُخدمت باستمرار منذ العصر الحجري القديم (منذ أكثر من 1.8 مليون سنة)، مروراً بالعصر الحجري الحديث والعصور اللاحقة وصولاً إلى الحياة القروية الحالية. وتعكس أنماط الاستيطان البشري تكيفاً طويل الأمد مع البيئات القاحلة وشبه القاحلة، مما يُظهر استمرارية في اختيار المواقع واستغلال الموارد. إن الإقامات المتكررة والمطولة في القرى السورية أثناء التنقيب وفي المواسم الزراعية حوّلت نظر المنقبين، الذي كان في البداية مُركزاً بشكل ضيق على الآثار القديمة، إلى السكان المحليين المُعاصرين وحياتهم اليومية. في البداية، نتجت معلومات متفرقة عن التواصل العرضي والنقاش غير الرسمي مع القرويين؛ ولكن تدريجياً أصبح من الواضح أكثر فأكثر أن البحث المباشر في القرى الحالية نفسها يمكن أن يُنتج معلومات متكاملة تتعلق بالأسئلة المطروحة حول المواقع الأثرية ذات الامتداد المكاني المحدود والسياق المعيشي المفقود تماماً.

[41] تقع واحة الكوم شمال شرقي تدمر في البادية الشامية (على بعد نحو 90 كم)، وتحتوي على عدة مواقع أثرية منها بئر الهمل والندوية وموقع الكوم وغيرها.

تُظهر قرى اليوم أدلة على استمرارية الأساليب المعمارية وإنتاج الغذاء على الرغم من تأثيرات التكنولوجيا الحديثة على أنماط الحياة التقليدية.

**المنطقة الجغرافية والإطار الزمني للدراسة:**

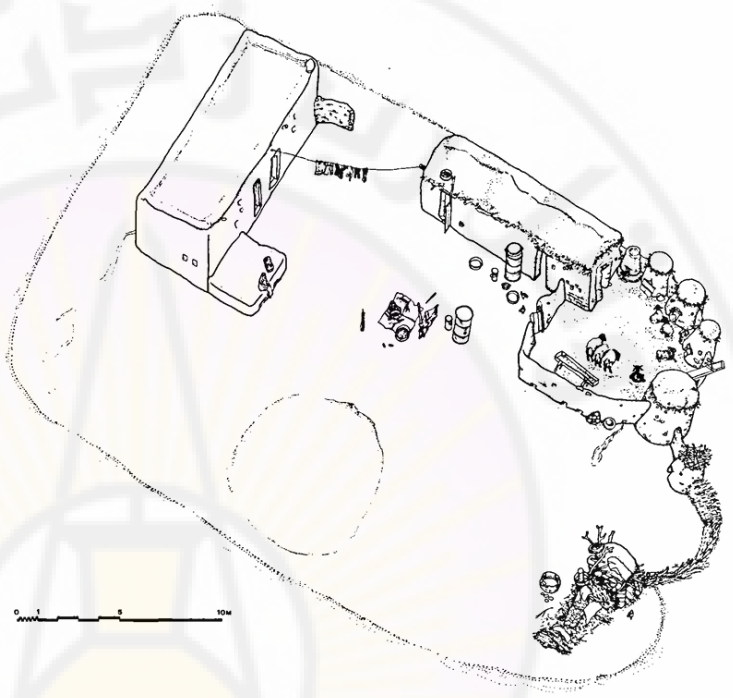
شمل العمل الميداني منطقتين جغرافيتين متمايزتين في سورية، واستمر العمل من عام 1980 إلى 1985: (1) وديان نهري الفرات والخابور، مع مواقع قرى محددة في مناطق التنقيب الطارئ (الإنقاذي) لمشاريع السدود السورية في منطقة الطبقة (موقع شمس الدين طنّيرة على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وعدة قرى في منطقة نهر الخابور). (2) الأراضي البركانية في جنوب حوران السورية (بصرى). كشفت الحفريات الأثرية في مستوطنة حلفيّة واحدة، هي موقع شمس الدين طنّيرة (أو تنيرة) عن أدلة على أن الناس عاشوا على طول نهر الفرات وأقاموا المدرجات الزراعية لآلاف السنين، يزرعون الشعير والقمح، ويرعون الأغنام والماعز، ونادراً ما يرعون الماشية، وبالطبع يمارسون الصيد. وقد كانت نباتات السهل الفيضي والمدرجات الزراعية أكثر ثراءً مما هي عليه اليوم، وكان عدد السكان أقل بكثير. اصطاد السكان القدماء في تلك الفترة الغزلان والأيائل والجاموس والخنازير البرية، بالإضافة إلى نوع منقرض الآن من الثيران البرية. وقد أشارت الأدلة إلى أن معدات الصيد لديهم تضمنت سهاماً برؤوس من حجر الأوبسيديان. وفرت الحيوانات الأليفة لمجتمع العصر الحجري نظاماً غذائياً من منتجات الألبان واللحوم، بالإضافة إلى الجلود لصنع الأواني والأدوات، وكذلك فرو الحيوانات لنسج الألبسة. وشمل النظام الغذائي النباتي مجموعة متنوعة من المكسرات البرية والفواكه والخضراوات والأعشاب والجذور. وكان صيد الأسماك في النهر جيداً، كما كان المحار وفيراً أيضاً. وهكذا، عاش سكان طنّيرة في العصر الحجري الحديث على اقتصاد مختلط من الزراعة والجمع والصيد وصيد الأسماك. عاد الناس إلى هذه الأرض الخصبة مراراً وتكراراً بعد أن هُجرت القرية الحلفيّة التي يعود تاريخها إلى 7000 ق.م. وتشهد التلال

القريبة على وجود قرى وبلدات من عصر البرونز ومعظم الفترات اللاحقة حتى الوقت الحاضر، حيث حُوِّلت مع الوقت إلى حقول محروثة بواسطة المستوطنات الزراعية المتعاقبة. عندما دُمِّر آخر استيطان في طنّيرة جزئياً بسبب ارتفاع منسوب البحيرة عام 1975، استعاد سكان القرية المحتَضرة ما استطاعوا من المنازل المهجورة، وخاصة الخشب، وجمعوا الحجارة والشجيرات الشائكة، وصنعوا الطوب، وبدأوا في بناء طنّيرة جديدة على بُعد 1.5 كم جنوب خط الشاطئ المُهدِّد بالفيضان. وبحلول نهاية عام 1981، استقرت اثنتا عشرة عائلة في منازل مُجمَّعة تتكون من مساكن مطلية باللون الأبيض، وساحات عمل خارجية احتوت على غرف دائرية ومستطيلة الشكل لوضع الحصاد والدواجن، وحظائر للأغنام. كما أضافوا إلى الجدران الخارجية للمساكن مقاعد ومنصات، كما كانوا يفعلون في الماضي. أحيط كل مجمّع سكني بمساحة واسعة تُكنس كل صباح بمكانس من القصب، مما يُحدد منطقة العمل والمعيشة الممتدة (أي المساحة الخارجيّة). ويؤدي التفاعل بين الماء المسكوب وحركات الإنسان والحيوان والكنس اليومي إلى جعل الأرضية سطحاً صلباً، يكاد يكون مصقولًا، وهو اكتشاف مهم لعالم الآثار الذي يراقب تكوينه التدريجي.

**العمارة السكنية: البناء، الانهيار وإعادة البناء:**

توفر العمارة الطينية في نهر الفرات فرصة مثالية لمراقبة تسلسل عملية البناء، خصوصاً عمليات بناء المنازل، وعملية تدهور مكوناتها. إذ تتدهور الجدران أو وحدات المبنى المتروكة دون إصلاح، خلال موسم الطقس السيئ، بسرعة تكاد تضاهي سرعة بنائها. يتشقق الجص، ويتفتت، وتتفكك جزيئات الحجر، وتبدأ عملية الانهيار. سرعان ما يصبح الجزء المُهمل غير قابل للإصلاح، ويصبح من الأسهل بكثير استعادة أجزاء السقف الخشبية، إلى جانب أي شيء آخر يمكن إنقاذه، وإعادة البناء من جديد. وبهذه الطريقة، يمكن ملاحظة التدهور والنمو (أي إعادة البناء) جنباً إلى جنب على مدى بضع سنوات فقط. تقف الأبنية الجديدة تماماً، وغيرها التي

لا تزال قيد الإنشاء، جنباً إلى جنب مع العناصر المعمارية المهجورة وهي الآثار المتبقية من تلك الأبنية، والتي تشبه بالفعل أساسات المنازل في قرية العصر الحجري المجاورة التي ظهرت في التنقيب.



**منزل لعائلة واحدة بُني عام 1979 في قرية شمس الدين طنّيرة.**

بالمقارنة مع قرى الطين الأشقر في منطقة الفرات، كشف الجزء المُنقَّب عنه من قرية من العصر البرونزي في بصرى، الواقعة في الأراضي البركانية الداكنة جنوبي سورية، عن بقايا حيوانية ونباتية تُشير للوهلة الأولى إلى صورة للزراعة المعيشية وتربية الحيوانات على غرار ما هو موجود على طول نهر الفرات. هناك بعض أوجه التشابه الأساسية الواضحة في مستويات المعيشة ومعالجة الأغذية في هذه المناطق الجغرافية المتباينة من العصر الحجري إلى العصر البرونزي.

**تقنيات البناء (الأساسات المرتفعة في أبنية بصرى):**

أظهرت التنقيبات في بصرى عام 1983 جزءاً من ردم حجري غير مفهوم، مغلق تماماً بطبقة من الطين المضغوط بشدة. كانت صخور البازلت الطبيعية الكبيرة متراكمة بشكل عشوائي، تاركةً العديد من الفراغات الواسعة، ثم غُطيت بشكل أكثر انتظاماً بحطام أصغر، عبارة عن حصى وردم أبنية وأدوات قديمة منها أحجار رحى بازلتية مكسورة. وفي جانب آخر من حقل التنقيب ظهر جزء من جدار صخري بازلتي صلب يقف على هذه القاعدة الصخرية. وبسبب صغر مساحة حقل التنقيب واقتراب موسم التنقيب من نهايته، كادت هذه الظاهرة المعمارية التي تعود إلى عصر البرونز الوسيط الثاني أن تبقى لغزاً دون حل. ثم انتقل فريق علماء الآثار إلى موقع مبنى روماني، لا يزال مأهولاً جزئياً، في قرية إجمارين، وهي قرية صغيرة تابعة لبصرى. هناك، لفت انتباه المنقبين "المَدَف" (بناء يقع على منصة مرتفعة من كتل البازلت)، الذي تم بناؤه حديثاً لعائلة صغيرة من المزارعين المستأجرين[42]. إذ كان قائماً على منصة مرتفعة تشبه الشرفة، مصنوعة من كتل بازلتية معاد استخدامها، مما رفعه بشكل ملحوظ فوق مستوى الفناء الحجري القديم للمبنى الروماني. ثم تبين أن منازل الحجر الأحدث عهداً لسكان بصرى الميسورين غالباً ما كانت تحتوي على منصات وشرفات بازلتية منخفضة. كشفت الزيارات للمنازل التي خُطط لإنشاء "مَدَف" جديد فيها عن مزيد من التفاصيل حول كيفية بناء هذه المنصات حيث يُملأ حوض منحوت من الحجارة بحصى البازلت؛ ثم يُسوّى السطح غير المنتظم عن طريق ملئه بالتراب؛ وأخيراً تُصبّ الأرضية الصُلبة للغرفة. ثم اتضح أن جميع المنازل القديمة والحديثة تقريباً في المنطقة، سواء في بصرى أو في القرى الصغيرة المجاورة، كانت قائمة على هذه الأساسات البسيطة المرفوعة؛

[42] المَدَف، أو مكان السكن، هو مكان إقامة منفصل ومستقل من الناحية الهيكلية. قد يكون قد شُيّد أو بُني أو حُوّل أو رُتّب للسكن البشري. يُشير مصطلح "المَدَف" في سورية إلى بناء يقع على منصة مرتفعة من كتل البازلت المُعاد استخدامها، مما يرفعه فوق مستوى الفناء القديم المرصوف بالحجارة لمبنى أثري. تُلاحظ هذه السمة المعمارية في كل من المنازل القديمة والحديثة في المنطقة، مما يدل على أنها ممارسة شائعة في المنطقة.

ومع ذلك، كلما كان المنزل أقدم، كلما كانت المنصة أقل وضوحاً، لأن مستوى الطريق يرتفع تدريجياً مع مرور الوقت والسكن. كانت هذه الملاحظات أساسية في حل مشكلة الجدار والمنصة البازلتية تحته الذي يعود لعصر البرونز الوسيط الثاني، والذي بدا وكأنه كتلة غير متجانسة تماماً من الصخور العشوائية، والذي كان لغزاً محيراً قبل ملاحظة منازل القرية الحديثة.



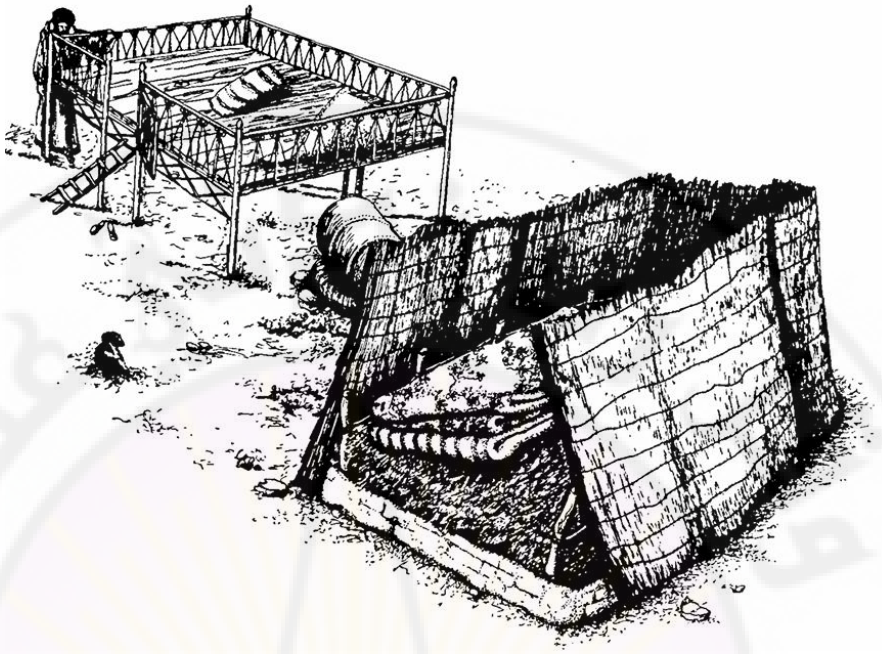
**المَدَف: منصة الأساسات المرتفعة لمنزل جديد في فناء منزل يعود للعصر الروماني (جمرين).**

وقد وفرت دراسة التضاريس والمناخ معلومات إضافية حول هذه الطريقة الخاصة في البناء. إذ تنتشر الحمم البركانية على مساحات واسعة من المنطقة؛ والبناء فوقها ممكن، ولكن حفر الأساسات في هذه الأرض الصلبة جداً هو أمر غير عملي باستخدام التكنولوجيا الحديثة، ولا بد أنه كان أكثر صعوبةً في الماضي. كما أن الأساسات المرتفعة (على عكس الأساسات الغائرة تحت أرضيات السكن) هي ضرورية من جهة أخرى لمواجهة الرطوبة والأمطار والثلوج في فصل الشتاء. ولابد أن توافر الصخور البازلتية في المنطقة سهَّل بناء مثل هذه الأساسات المرتفعة.

**الأبنية والأثاث المدمج بالعمارة:**

لعلّ أكثر مكونات منازل القرى شيوعاً، ولكنها أيضاً سريعة التلف نسبياً، هي العناصر المُدمجة في العمارة، ذات الأصل القديم (كالمحاريب في الجدران لترتيب الفرش والأغطية مثلاً)، والتي تُعدّ الآن مكافئات "تقليدية" للأثاث الحديث (كالخزائن والطاولات وغيرها من قطع الأثاث). تُبنى منصات العمل في القرى المعاصرة، على سبيل المثال، في الفناء عادةً أمام المطابخ؛ وتُبنى المقاعد الحجرية في الأفنية المُظللة أو الممرات ذات التهوية الجيدة لاستخدامها في حرارة الصيف أو في وقت الظهيرة الدافئ في الشتاء. بعض هذه المنصات كبير بما يكفي ليكون متعدد الأغراض للعمل والراحة والنوم. تنتشر منصات النوم المرتفعة القديمة المبنية من الحجر واللّبِن ومثيلاتها المعدنية الأحدث في منطقة الخابور، ويُشار إليها باسم "أسرّة العقرب". تعود مكونات بنائها إلى قدم المستوطنات القروية في المنطقة، إذ عُثر عليها في سياقات العصر الحجري في بلاد ما بين النهرين وإيران[43].

[43] Aurenche 1981, p. 262-263.



**أسرة العقرب: منصة من اللّبِن وفراش من الأغصان والقصب.**

وكمثال آخر: يمكن أن تؤدي المنصات الحجرية الصغيرة المرتفعة والمنصات الحجرية ذات الشكل نصف الدائري عدة وظائف منزلية. فإذا كانت مجوفة ومبنية على الجدران، فقد تكون حظائر للحيوانات (تستخدم كقن دجاج في بصرى)، أو صوامع لتخزين الحبوب. أما إذا كانت صلبة، فغالباً ما تكون منصات/"منضدة" لوضع المواد الغذائية المُجهزة مسبقاً والتي تحتاج إلى وقت لتنضج، مثل منتجات الألبان. وقد احتوت قُرى حوران المعاصرة على منصات بازلتية "طاولة"، مُقامة على جدران المنازل البازلتية، وفي حقل التنقيب في حفريات بصرى تم اكتشاف قاعدة مشابهة احتوت على كِسر فخارية من عصر البرونز الوسيط الثاني في أحد مستويات الاستيطان التي تعود إلى عصور البرونز. الأمر الدال على أن دراسة العمارة السكنية في القرى المعاصرة قد

تعطينا معلومات أو دلالات على بعض العناصر المعمارية التي تظهر في المواقع الأثرية والتي كانت ستظل مُبهمة لولا الاستدلال عليها من الوقت المعاصر.

**الأدوات المنقولة:**

كثيرة هي الأدوات الصغيرة الضرورية للنشاطات اليومية لعائلات الفلاحين، ولكن قليل منها فقط حافظ على شكله ومضمونه من عصور ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا. تُعد الرحى والهاون والمِدقات[44]، هي الأكثر متانة وبالتالي الأفضل حفظاً. إذ يمكن إعادة استخدامها باستمرار، وبالتالي فهي خالدة عملياً. وإن بعض قطع الهاون القديمة لا زالت تُستخدم اليوم في القُرى كأحواض، ولكن لا يمكن تأريخها لأنه لم يُعثر عليها في سياقها التاريخي أثناء التنقيب. كما أنه من الممكن أن تستخدم أجزاء أثرية في صنع أدوات على مر العصور. ففي عام 1984 عثر فلاح في بصرى على حجر طحن مستدير من البازلت معاد استخدامه في عتبة بيت يعود للعصر الأموي فاستخرجه ليعيد استخدامه أيضاً. عادةً ما يقوم الفلاحون باستخدام مخلفات قديمة لاستخداماتهم

[44] الرحى هي آلة لطحن الحبوب، عبارة عن حجرين مستديرين يُركبُ أحدهما فوق الآخر، ويكون السفليّ منهما ثابتاً، بينما يتحرّك الحجر العلويّ حول محور خشبيّ أو معدنيّ، تكون قاعدته مثبّتة في أسفل الحجر السفليّ، وعندما تدور حجر الرحى فإنها تمر فوق حبات القمح أو الشعير التي توضع من فتحة دائرية صغيرة في وسط الحجر العلوي، فتتكسر تلك الحبات شيئاً فشيئاً، كلما دار عليها حجر الرَّحَى حتى تصبح دقيقاً ناعما صالحا لصناعة الخبز. أما **الهاون والمدقة** فهما أداة قديمة يستخدمان لسحق **الحبوب**، الهاون عبارة عن وعاء متين توضع المواد التي يراد سحقها فيه وتدق بواسطة المدقات التي تكون من الأحجار.



**الرحى الحجرية.**

اليومية، كنحت هاون لطحن الحبوب من أسطوانة عمود قديمة. وكثيراً ما يعثر الفلاحون على أحجار طحن مستديرة فيستخدمونها في عمارة المنازل وخصوصاً في عتبات البيوت.

وبينما لا يزال القرويون المحليون يصنعون قوالب طينية مزخرفة بأشكال ورموز عديدة، وهي لا تزال موجودة في كل منزل في القرية، فإنه عُثر على قوالب طينية مماثلة يعتقد أنها استخدمت للخُبز والكعك في مواقع تعود إلى عصر البرونز، مثل القوالب التي عُثر عليها في مطبخ قصر ماري الملكي.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن التحقق من قدم أدوات الحصاد الرئيسية التي يستخدمها الفلاحون في القرى السورية، إلا أن الأدوات الأساسية المستخدمة والطابع القديم لطريقة صنعها في النماذج المتبقية اليوم تشير إلى أصل مبكر (قديم) لهذه الأدوات. إذ لا تزال المذراة مثلاً (أداة تستخدم لتنقية الحبوب من الشوائب أي نخل

الحبوب)، مع اختلافات محلية طفيفة، منتشرة على نطاق واسع من الشرق الأوسط إلى الطرف الغربي من البحر المتوسط، مما يدعم استمراريتها الزمنية.



المذراة



وكذلك الأمر بالنسبة إلى سلال غربلة الحبوب المصنوعة من القصب أو من شرائح الجلود، دون استخدام المسامير. فإنه لازالت هذه السلال تستخدم في القرى المعاصرة وتُشترى من أسواق العواصم، وتُصنع أيضاً على يد الغجر الرحل الذين يزورون القرى بشكل دوري[45].

[45] كان المصريون القدماء يحرصون على تنقية محاصيلهم عن طريق "التذرية"، والتي تتم بشكل يدوي باستخدام غربال كبير، وهناك شخص مُخصص لأداء هذه العملية دون غيرها. كما استخدم المصري القديم بعض الأدوات لإتمام هذه العملية توفيرا للوقت والجهد المبذول وللحصول على نتائج أفضل، ظل بعض من هذه الأدوات مستخدماً بصورة مماثلة أو مع بعض الاختلافات حتى الآن في بعض قرى مصر بطريقة أقرب ما تكون لتلك التي اتبعها المصري القديم.



قد تُصنع معدات الدِراسة (دراسة الحبوب) من ألواح خشبية مرصعة بشظايا بازلتية كما هو الحال في بصرى، أو من شفرات ورقائق صوانية كما هو الحال في المناطق النائية شمالي سورية، وتُعزى هذه الاختلافات جزئياً إلى توافر المواد الخام المناسبة، ومع ذلك، فإن بساطة التصميم والبُنية تُشير على الأرجح إلى قِدَمها. ومن الجدير بالذكر أن الحصادات الحديثة لم تحل محل هذه المعدات في العديد من المناطق، الأمر الدال على كفاءتها. ومن الممكن إدراج كل الأمثلة السابقة في أي إعادة بناء للحياة في قرية من قرى ما قبل التاريخ.

**المحاضرة الثامنة**

# تقنيات الزراعة والري القديمة واستمراريتها في بعض القرى السورية المعاصرة

## الزراعة والري في سورية:

شهدت سورية، التي تُعد جزءاً من الهلال الخصيب، ظهور بعض أولى المستوطنات الدائمة وزراعة المحاصيل مثل القمح والشعير والبقوليات، بالإضافة إلى تدجين الأغنام والماعز والأبقار (منذ نحو عام 10000 قبل الميلاد). وقد قام المزارعون الأوائل بتطوير شبكات الري وقنوات تحويل مياه الأنهار وممارسات إثراء التربة باستخدام السماد. ساهمت تقنيات قديمة مثل تناوب زراعة المحاصيل (أي زراعة محاصيل مختلفة بتسلسل منظم في نفس الحقل عبر مواسم متتالية) ومحاذاة الحقول (أي تحديد حدود الحقول بدقة، لضمان الكفاءة القصوى في استخدام الموارد) في تحقيق الاستدامة في الانتاج، كما ساهمت العصور الرومانية والبيزنطية في تطوير تقنيات الري والزراعة وتقنيات التكيّف مع المناخ والطبيعة.

تُبيّن الدراسات استمرارية الثقافة الزراعية السورية من العصر الحجري الحديث إلى القرى المعاصرة، مُظهرةً استمرارية ملحوظة للمعرفة الشعبية على مرّ آلاف السنين. فقد أثّرت ممارسات الريّ السورية القديمة تأثيراً عميقاً في تطوّر وبنية واستدامة القرى الحديثة في سورية، لا سيما من خلال الابتكارات في إدارة المياه، والتنظيم الجماعي للعمل، والتقنيات الزراعية. فعلى سبيل المثال: احتفظت العديد من القرى في شمالي سورية بتخطيط قطع الأراضي الزراعية التي تعود إلى العصر الروماني، والمدّرجات أي المصاطب الزراعية، وخزانات الري، مما يدل على استمرارية إدارة المياه والحفاظ على التربة. يعتمد المزارعون السوريون المعاصرون في كثير من الأحيان على الري المكثف وقطع الأراضي الصغيرة، لا سيما في المناطق الجبلية والساحلية، مما يعكس آلاف

السنين من التكيّف مع المناخات المحلية الإقليمية. ومن جهة أخرى، فقد لاحظت الدراسات في القرى المعاصرة عملية دمج التقنيات التقليدية مع مثيلاتها الحديثة، بنواحٍ تتعلق بأصناف المحاصيل وأنظمة الري وغيرها من التقنيات. إذ دلت الدراسات الأثرية في مواقع مثل تل تويني (الساحل السوري/جبلة) وأبو هريرة (منطقة الفرات)[46] أن السوريين القدماء كانوا يتناولون نظاماً غذائياً غنياً بالحبوب والزيتون والعنب، مع تناول منتجات الألبان أو اللحوم أحياناً. وتشير الدراسات الاثنوجرافية في القرى السورية إلى استمرارية هذه الأنماط في العصر الحديث. إذ لا تزال الأنظمة الغذائية في المناطق الريفية السورية المعاصرة تُركِّز على الحبوب والبقوليات والزيتون والفواكه، مع كميات محدودة من اللحوم، مما يعكس النمط الغذائي العائد لعصر البرونز (الألف الثالث والثاني قبل الميلاد). يدل على هذه الاستمرارية الغذائية اختيار المحاصيل المزروعة في معظم القرى، إذ يُعطي العديد من صغار المزارعين المعاصرين الأولوية للمحاصيل التقليدية لتلبية احتياجاتهم المعيشية ومتطلبات السوق.

**أساليب الري الرومانية:**

استخدم الرومان أساليب مبتكرة للري تشبه تقنية الري بالتنقيط المعاصرة، وذلك من خلال شبكات معقدة من القنوات والخزانات لتوزيع الماء ببطء على المزروعات. وقد كانت الهندسة المائية والزراعة متقدمة في العصر الروماني، إذ طور الرومان نظاماً متقناً لتوفير المياه إلى البساتين، ومن أساليبهم تلك:

[46] يقع تل **أبو هريرة** منطقة في الجزيرة الفراتية في سورية، وجد فيه أقدم آثار للقمح المزروع في العالم، ولهذا يعتقد أن استئناس القمح حدث في هذه المنطقة .غمرته مياه بحيرة بعد إنشاء سد الفرات. يبعد تل «أبو هريرة» نحو 80 كم عن مدينة «الرقة». سُكن الموقع في العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث.

- **القنوات والخزانات الصغيرة:**

أنشأ الرومان قنوات بأقطار صغيرة تمتد من الينابيع أو الأنهار إلى الأراضي الزراعية، بحيث تسمح بتسريب الماء ببطء إلى التربة حول جذور النباتات، وهو ما يشبه اليوم مفهوم الري بالتنقيط. تشير الدلائل الأثرية في مدن مثل مدينة بيت لحم القديمة في فلسطين[47] ومدينة بومبي في إيطاليا إلى أن الرومان زرعوا أشجار الزيتون والكروم باستخدام أنظمة تسريب المياه المنظمّة، التي أدت إلى الحفاظ على المياه في مناطق جافة إلى حد كبير. إذ أظهرت التنقيبات الأثرية في مدينة بومبي الإيطالية[48] نظام شبكات مياه أرضية صغيرة يمد حدائق المنازل بالمياه بشكل تدريجي. وذلك بوضع مجاري صغيرة تقوم بتسريب المياه عند قاعدة وجذور النباتات بالتدريج مما يقلل فقدان المياه ويزيد من كفاءة الري وهذا ما يشبه مبدأ الري بالتنقيط في العصر الحديث. كذلك الأمر، فقد استخدم الرومان أنابيب فخارية لتوجيه الماء بالتنقيط إلى الأشجار المثمرة في الحقول.

- **خزانات المياه الموزعة:**

استخدم الرومان خزانات لتخزين المياه وإطلاقها تدريجياً في أوقات مُحددة لضمان وصول الرطوبة بشكل متبادل إلى المحاصيل دون إهدار المياه.

**الأهمية والفائدة:**

هدفت هذه الأساليب إلى الحفاظ على المياه لأن أسلوب الري البطيء يقلل من فقدان الماء بالتبخر أو التسريب. كما أنه يساهم في رفع الإنتاجية، فهو يوفر المياه مباشرةً إلى جذور النباتات مما يساعد في نمو أفضل

[47] تقع على بعد نحو 10 كم جنوبي مدينة القدس، وهي مدينة كنعانية، أصبح لها أهمية خاصة بعد ولادة السيد المسيح فيها، بنى فيها قسطنطين الأكبر (امبراطور روماني حكم بين عامي 306 و337 م) كنيسة المهد فوق الكهف الذي يُعتقد أن السيد المسيح ولد فيه، وهي من أقدم الكنائس في العالم.

[48] تقع المدينة على سفح جبل بركان فيزوف الذي يرتفع 1,200متراً عن سطح البحر، بالقرب من خليج نابولي في إيطاليا.

للمحاصيل الزراعية. ومن الجدير بالذكر أن هذه الطرق قد شكلت نموذجاً أولياً تطور لاحقاً إلى تقنيات الري بالتنقيط في القرون الأخيرة. يمكن القول باختصار أن الرومان القدماء طبقوا مبادئ الري بالتنقيط بشكل مبكر بواسطة شبكات من القنوات الصغيرة والخزانات والأكشاك المائية الموجهة للمحاصيل، لا سيما في المناطق الحضرية والبساتين الخاصة. وكانت هذه الطريقة فعالة في ترشيد استخدام المياه وزيادة الإنتاج الزراعي.

**استمرارية تقنيات الري الرومانية في قرى الساحل السوري:**

أظهرت الدراسات في الساحل السوري أن بعض القرى المعاصرة لا زالت تعتمد على قنوات المياه والري الرومانية في تأمين المياه للشرب أو لسقاية المزروعات، كما هو الحال في بعض قرى محافظة طرطوس.



إذ بنى الرومان القدماء قنوات المياه بهدف استجرارها إلى مدنهم وبلداتهم من مصادر بعيدة، واستخدامها في الري واستصلاح الأراضي، وللسيطرة على الفيضانات، وقد كشفت أعمال التنقيب على العديد منها في الساحل السوري، وذلك في محافظة "طرطوس"، كما في "عمريت" و"بانياس." فبالإضافة إلى قنوات الري، بنى الرومان

العديد من الأنفاق والقنوات التي تمّ حفرها في باطن الأرض مع بطانة من الطين، وكانت تخدّم المواقع الوظيفية كالمناجم والمطاحن المائية والحمامات، وقد امتلك الرومان لبنائها تقنيات متطورة إذ يتطلب ذلك مسحاً جيداً للأرض لضمان تدفق منتظم وسلس، وتخطيطاً دقيقاً لتحديد مصادر المياه التي سيتم استجرارها، وحساب طول القناة وعرضها، وهذا يحتاج إلى مهارات ودقة كبيرة لضمان استجرار المياه بطرق لا تتسبب بتلف جدران القناة. أولى الرومان اهتماماً كبيراً لمنطقة الساحل السوري وقاموا ببناء القنوات لجر المياه من الينابيع الموجودة عند التقاء الجبال بالسهل الساحلي وإيصالها إلى كل من "طرطوس" و"عمريت" وبانياس" وغيرها من المدن على امتداد الساحل السوري. كما قاموا أيضاً ببناء قنوات أخرى بهدف جر المياه المالحة من تلك المدن والمنشآت الصناعية التابعة لها إلى أماكن مخصصة للتخلص منها وبالتالي المحافظة على سلامة السكان ونظافة مدنهم. ولا تزال العديد من القرى المعاصرة في محافظة طرطوس تستفيد من قنوات المياه الرومانية إما لغرض الشرب أو لسقاية الأراضي الزراعية أو لتجميع مياه الأمطار خاصةً في المناطق التي تعاني من شح المياه صيفاً. ومن هذه القرى "نعنو" في ريف "القدموس" التي تحتوي على عدة ينابيع ما تزال مستخدمةً من قبل الأهالي حتى يومنا هذا، وهي عين "الجرن" الأثري، وعين "الحورة". إذ حجز الرومان مياه الينابيع الطبيعية في بحيرات على شكل أجران من البازلت ووزعوا منها أقنية لتوصيل المياه إلى الحقول والقرى[49].

[49] الجرن" الأثري، وعين "الحورة" وهما عبارة عن قناة وبركة أثرية من العصر الروماني.



كما يوجد جسر في قرية "الكريم" في ريف "حمام واصل" اسمه "جسر الحاج حسن" وهو مبني على نبع يحمل الاسم نفسه، وقد استخدم لتسهيل وصول مياه النبع بين منطقتي "القدموس" و"الشيخ بدر" وهو يعود تاريخياً إلى الفترة ذاتها (العصر الروماني). فضلاً عن عدد من القنوات والينابيع والبرك الأثرية كنبع "الذهب" القديم في مزرعة "بيت النبع" في جبل "زغرين (يقع جبل زغرين على طريق القدموس–مصياف ويرتفع نحو 1120 م عن سطح البحر).

وقد كشفت التنقيبات الأثرية في العامين 1991 و1992 في كل من "عمريت" و"بانياس"، عن وجود شبكات من الأقنية المائية التي تعود للعصر الروماني، تدل على مستوى حضاري مميز، وكانت هذه الأقنية تتوزع بين المنشآت السكنية، منها ما يستخدم للمياه العذبة، وقنوات أخرى للمياه المالحة، والبعض منها يكسوها الطين ومغطاة بالحجارة، وأرضياتها مبلطة ببلاطات حجرية منحوتة أو مرصوفة بقطع اللّبِن.



**جسر "الحاج حسن"**



نبع "عين الذهب" الأثري

أما بالنسبة للأقنية في المرفأ البحري في "عمريت" الواقع جنوب نهر "ماراتوس" (نهر عمريت حالياً)[50]"، فقد تم الكشف عن المرفأ في العام 1992، وهو يشكل صلة وصل بين "عمريت" و"أرواد"[51]، وقد كُشف فيه عن قناة مائية أثرية، تصل إليه من نبع ماء طبيعي بطول 268 متراً، وهي محفورة في الأرض ومبنية من الحجر الرملي المنحوت من القطع الكبير، يبلغ عرضها نحو 70 سم وعمقهما نحو 2 م، مسقوفة ببلاطات حجرية رملية منحوتة يبلغ طولها نحو خمسة أمتار، أما سماكتها فتبلغ نحو 30 سم، مازال قسم منها موجوداً أما الآخر فتمت إزالته، والأرضية كانت مبلطة ببلاطات حجرية مشغولة، وقد كانت هذه القناة في تلك الفترة تغذي المرفأ بالمياه اللازمة.



**القناة الرومانية "عمريت"**

[50] تقع عمريت على بعد نحو 6 كم جنوبي طرطوس، يعود فيها الاستيطان إلى الألف الثالث قبل الميلاد. أصبحت عمريت مدينة فينيقية هامة في عصر الحديد. يشتهر الموقع بمعبده الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد، وبالمقابر المحيطة به (المغازل)، وقد كانت عمريت مدينة مزدهرة ذات دور تجاري هام، وهي ضاحية قارية لمدينة أرادوس (أرواد)، وعُرفت باسم "ماراثوس" في العصر السلوقي. وتشتهر بمعبدها المكشوف الرائع والمقابر المحيطة بها، مما يُعطي فكرة عن حدود المدينة الجغرافية.

[51] بسام وطفة 2020، موقع (esyria).

**نتائج عامة:**

لقد تركت الممارسات الزراعية السورية القديمة إرثاً بيئياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً عميقاً ساهم في رسم بعض معالم الحياة القروية المعاصرة:

1. إذ ينعكس تنظيم الحقول والأراضي الزراعية والمدرجات الزراعية، وتقنيات الري القديمة على استراتيجيات استخدام الأراضي الحالية.
2. لا تزال خيارات المحاصيل والأنماط الغذائية تعكس أنظمة الزراعة والرعي في العصر البرونزي.
3. تُؤثر الإدارة الجماعية وتنظيم القرية على التماسك الاجتماعي وتوزيع العمل.

**المحاضرة التاسعة**

# الأثنوجرافيا الأثرية وصناعة المعادن

**مقدمة:**

**التعدين:** هو عملية استخلاص المعادن القيّمة من باطن الأرض مثل الذهب والفضة والنحاس والحديد، ويشمل التعدين جميع العلميات التي تبدأ بالدراسة الجيولوجية للموقع لاكتشاف الموارد، مروراً بمرحلة الحفر والاستخراج وصولاً إلى معالجة المواد الخام وتحويلها إلى منتجات وأدوات قابلة للاستخدام.

**مدخل إلى دراسة التعدين من خلال العمل ال"الأثنوجرافي الأثري":**

تشكل دراسة التقنيات القديمة مجموعة كبيرة من الأبحاث الاثنوجرافية الأثرية. وتلي دراسات التعدين والصناعات المعدنية (وخاصة الحديد) دراسات صناعة الخزف وإنتاج الأدوات الحجرية من حيث الحجم والكثافة[52]. إذ بدأ استخدام الروايات الاثنوجرافية، منذ بداية القرن العشرين جنباً إلى جنب مع البيانات الأثرية في تفسير البقايا الأثرية المعدنية. يعتمد علم الآثار وعلم الاثنوجرافيا في دراسته للتكنولوجيا على دراسة النواحي التقنية جبناً إلى جنب مع النواحي الاجتماعية والرمزية المصاحبة لعمليات إنتاج المعادن[53]. إذ إن اندماج هذه العوامل لا يظهر في أي مكان أكثر وضوحاً مما هو عليه في الدراسات الاثنوجرافية–الأثرية، ويعتمد الباحثون أيضاً في مثل هذه الدراسات على المصادر التاريخية، ومبدأ التكامل في البحث، أي الربط بين دراسة المعادن والتعدين وعلم الآثار المستند إلى علم الإنسان. ولقد استخلصت الدراسات الأثنوجرافية الأثرية للتعدين بعد العديد من التجارب مبدأ يقوم على توحيد جميع الجوانب قيد الدراسة، كالجوانب الاجتماعية والتقنية والأيديولوجية المرافقة لعمليات

[52] Iles, L. and Childs, S.T. "Ethnoarchaeological and Historical Methods, p. 195.
[53] David and Kramer 2001.

انتاج المعادن. وتُعدُّ دراسة عمليات إنتاج الحديد في أفريقيا التي جرت في القرنين التاسع عشر والعشرين من أولى الدراسات في هذا المجال[54]. نتج عن تلك الدراسات الأولى تأكيد قاعدة علمية هامة: أن التطبيق الصحيح للوظائف الاجتماعية والطقسية أثناء صناعة المعادن ضمن الثقافات البدائية المعاصرة له نفس أهمية تنفيذ التقنيات البحتة لنجاح عملية صهر الحديد. وقد أثر هذا البحث، الذي أُجري في أفريقيا، على الدراسات الأثرية الخاصة بإنتاج المعادن في جميع أنحاء العالم. كما أثرت الدروس المستفادة من دراسة إنتاج الحديد في أفريقيا على دراسة مواد وتقنيات أخرى (كالنحاس والفضة وغيرها). وقد ركز بعض الباحثين بشكل أساسي على توثيق العمليات الفيزيائية والتقنية لعمليات الإنتاج: مثل كيفية بناء الأفران، والمواد الخام المُستخدمة، ودرجات الحرارة التي تم الوصول إليها، وما إلى ذلك. بينما أكد آخرون على الجوانب الاجتماعية والرمزية للعملية، ولعله من المفيد أن نلاحظ أهمية دمج الجانبين معاً لفهم التقنيات القديمة و"البدائية" المعاصرة. وقد مكنت الدراسات الاثنوجرافية الأثرية من معالجة أسئلة واسعة النطاق حول البقايا الأثرية المعدنية، وتشمل هذه الأسئلة دراسة حركة القطع والأدوات المعدنية والمواد الخام وانتقالها ضمن المناطق المتجاورة أو البعيدة عن بعضها، وعلاقة الأنماط وأساليب الإنتاج بالكيانات الاجتماعية والثقافية، بهدف بناء صورة أكثر اكتمالاً للماضي.

ومن المعروف أن صائغي المعادن التقليديين الذين ينتجون ويعملون بالذهب والفضة وسبائك النحاس والرصاص ما زالوا يمارسون عملهم في أجزاء من آسيا والأمريكيتين، ولكن حتى الآن، لم تُجرَ سوى دراسات قليلة نسبياً حول هذه التقنيات. تشمل الاستثناءات العمل في شرق آسيا على إنتاج الحديد، وبدرجة أقل، معادن أخرى، وإنتاج الرصاص والفضة في أمريكا الجنوبية وإنتاج الحديد الخام في أمريكا الشمالية. كما أن هناك عدداً أقل بكثير من الدراسات التي تتناول الحدادين وعمال المناجم واستخدام وأهمية الأدوات المعدنية. وللأسف، فإن

[54] Barndon, R. 2004, An ethnoarchaeological study of iron-smelting practices among the Pangwa and Fipa in Tanzania. Oxford, Archaeopteris.

الوقت ينفد للتواصل مع العديد ممن لديهم ذكريات عن ممارسات التعدين "التقليدية" الحية، إذ إن هذه الصناعات باتت تتراجع بشكل واضح، ويرحل ممارسوها.

**منهجية دراسة التعدين والمعادن باستخدام علم الأثنوجرافيا الأثرية**

بما أن الهدف الرئيسي للدراسات الاثنوجرافية الأثرية هو تحسين قدرة العلماء على تفسير البقايا المادية، وتطبيق بيانات علم الأثنوجرافيا على البقايا الأثرية من أجل وضع نظريات تُفسِّر الماضي، فإن دراسة المعادن والأدوات المعدنية المكتشفة في الحقل الأثري كانت محط اهتمام علم الأثنوجرافيا الأثري مؤخراً. وتم ذلك من خلال دمج الأثنوجرافيا في تفسير الآثار المعدنية بطريقة "القياس المباشر". يستخدم القياس المباشر بيانات اثنوجرافية قابلة للملاحظة يُمكن تطبيقها مباشرة على الثقافات الماضية فيما يتعلق بالمعادن، لأن الخواص الفيزيائية للمعادن تظل ثابتة بغض النظر عن السياق التاريخي أو الثقافي[55]. ويعني ذلك البحث عن معلومات ذات طبيعة تقنية بغض النظر عن الانتماءات الاجتماعية أو الثقافية للبقايا قيد الدراسة. ويمكن تطبيق هذه البيانات على سيناريوهات تعدينية من جميع العصور وفي جميع المناطق، طالما تم مراعاة الاختلافات الملحوظة والقابلة للقياس في الجيولوجيا والجغرافيا وعلم النبات، وما إلى ذلك. ولقد أثر تطور البحوث الاثنوجرافية الأثرية على مناهجنا الحديثة في دراسة علم المعادن وتعد النقاط التالية من **أهم اسهاماتها في مناهج البحث الحديثة:**

1. ساهم في تطوير تفسير البقايا الأثرية المعدنية.

[55] Muhly, J. D. 1988, The beginnings of metallurgy in the old world. In R. Maddin (Ed.), The beginning of the use of metals and alloys, Cambridge: MIT Press, p. 2–20.

2. ساهم في صياغة أسئلة البحث في علم المعادن وأهدافه، ويمكن تعريف **علم المعادن** بأنه علم استخلاص المعادن من خاماتها وتعديلها لاستخدامها، كما يهتم بالخصائص الكيميائية والفيزيائية والذرية للمعادن، بالإضافة إلى المبادئ التي يتم بموجبها دمج المعادن لتكوين السبائك.

3. كما أنه أظهر إمكانية إحداث تأثير إيجابي ملموس على التراث الثقافي المحلي في المناطق التي طُبّق فيها. إذ تشجع هذه الدراسات الاهتمام المحلي والفخر بالحرف والتقنيات التقليدية، أو يُعيد تنشيطهما. كما يمكن لها (أي الدراسات الأثنوجرافية الأثرية) أن تُنتج مواداً للمتاحف المحليّة، وأن تُشرك طلاب المدارس المحليّة بنشاط في استكشاف ماضيهم، وأن تُثير فضولهم في هذا المجال. الأمر الذي يمكِّن من تسخيرها لتوجيه السياحة الثقافية، وبالتالي توليد دخل محلي، وهو اعتبار بالغ الأهمية في العديد من مناطق العالم التي تُجرى فيها الدراسات الأثنوجرافية الأثرية.

**مصادر الدراسة وتاريخ تطورها:**

تتوفر مجموعة واسعة من الموارد غير الأثرية لعالم الآثار لمساعدته في تفسير بقايا الأدوات المعدنية التي يعثر عليها في التنقيب والمواقع الأثرية. وتشمل هذه الموارد مصادر تاريخ الشعوب والمصادر الاثنوجرافية والتاريخية الأساسية، بالإضافة للمصادر المتعلقة بالفن والتحف، والتي تتضمن أحياناً أوصافاً وصوراً مفيدة لعمليات الإنتاج أو المعلومات التكنولوجية.

تُعدّ الموسوعات القديمة من أقدم النصوص القيّمة لهذا الموضوع وقد غطت مواضيع مثل الصناعة والتكنولوجيا وعلم المعادن من جميع أنحاء العالم القديم. وتوجد مجموعة كبيرة ومتنوعة من هذه المصادر تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد. ومن الأمثلة على ذلك (وليس الحصر) كتاب "على الأحجار" للكاتب اليوناني "ثيوفراستوس"،

والسجلات الصينية لمؤلفها "سيما تشيان" وغيره[56]. وفي مرحلة لاحقة يمكن ذكر أعمال العالم والمؤرخ الروماني بلينيوس (المُلقب ب "بليني الأكبر") ومنها مؤلفه: "التاريخ الطبيعي" الذي بقي منه 37 مجلداً عن التاريخ الطبيعي، وكتاب "الجماهير في معرفة الجواهر" لمؤلفه العالم "أبو ريحان البيروني" وكتاب "السيوف" الذي كتبه الكندي[57].

يمكن لهذه المصادر، من خلال التفسير الدقيق ووضعها في سياقها، أن تكشف عن مدى المعرفة الكيميائية والجيولوجية والمعدنية في وقت كتابتها. كما أنها توفر معلومات وافرة حول الجوانب العمليّة لمختلف العمليات المعدنية، مثل التنقيب عن الخامات، والتعدين، وعمليات الاختزال، وتطوير أساليب وتقنيات جديدة تتعلق بالزئبق والرصاص والفضة والذهب والنحاس والحديد والقصدير. وتُقدم أيضاً أوصافاً تفصيلية للروابط التجارية في جميع أنحاء أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا، ومواقع الموارد الحيوية لإنتاج المعادن. علاوة على ذلك، غالباً ما توفر هذه المصادر روايات شهود عيان مفيدة حول تنظيم الإنتاج، بالإضافة إلى وصف للقيم الثقافية المنسوبة إلى مختلف المعادن.

بالانتقال إلى فترة لاحقة، يُعد كتاب "جورجيوس أغريكولا" (دي ري ميتاليكا De Re Metallica)، الذي نُشر عام 1556، من أكثر النصوص التي يُستشهد بها. يُلخص الكتاب حالة المعرفة بعلم المعادن الأوروبي في بداية عصر الإصلاح[58]. ينصب التركيز الأساسي للعمل على التعدين، ولكنه يُغطي أيضاً العديد من العمليات والأساليب المتعلقة بالفضة والذهب والقصدير والحديد والرصاص والنحاس، بالإضافة إلى تصوير العديد من

[56] Wagner, D. (1984). Some traditional Chinese iron production techniques practiced in the 20th century. Journal of the Historical Metallurgy Society, 18, 95–104.

[57] Wagner, D. (2008). Science and civilization in China, Volume 5: Chemistry and chemical technology, Part II: Ferrous metallurgy. Cambridge: Cambridge University Press.

[58] حركة الإصلاح الديني، التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر، كانت تحولاً ديناً واجتماعياً كبيراً في أوروبا، قادتها شخصيات بارزة مثل مارتن لوثر وجون كالفن. بدأت الحركة كرد فعل على الفساد والممارسات غير السليمة داخل الكنيسة الكاثوليكية، مثل بيع صكوك الغفران.

هذه التقنيات في نقوش خشبية مُفصَّلة. وقد تم الاستشهاد بكتاب أغريكولا في أوراق بحثية أثرية مختصة بالمعادن.

ثم بدأ استعمار الأمريكيتين في نفس الوقت الذي قامت فيه الإمبراطوريات الأوروبية بالتوسع خارج أوروبا. وبذلك كانت القوى الاستعمارية تسعى لتحقيق أقصى قدر ممكن من الأرباح من الموارد المحلية للمناطق التي كانت تستولي عليها وتستعمرها. فقامت بنشاط علمي ولكن غير أخلاقي يقوم على تدوين سجلات دقيقة لعمليات انتاج المعادن في بعض المناطق المُحتلة، بهدف التحكم في انتاج المعادن الثمينة، كالذهب والفضة اللذان كانا مصدراً لثروة تلك القوى الاستعمارية. ونتيجة لذلك، توجد مجموعة واسعة من المصادر المكتوبة التي توثق علم المعادن في ذلك الوقت، بما في ذلك موسوعة "ساهاغون" المكونة من 12 مجلداً بعنوان "مخطوطة فلورنسا: التاريخ العام للأشياء في إسبانيا الجديدة". ولقد امتلك كتّاب هذه النصوص معرفة عمليّة بالصناعة المعدنية مثل "أوفييدو"[59] الذي كان يعمل لدى الملك فرديناند الأول (امبراطور النمسا وملك المجر: 1793–1875م) بصفته "المسؤول الأول لصهر المعادن"، و"ألفارو ألونسو باربا" الذي عمل كمشرف على منجم البوتوسي في بوليفيا[60].

كتب المستكشفون الأوائل لأمريكا الشمالية، ولأفريقيا، روايات شخصية ورسمية عن الشعوب التي التقوا بها، وكثيراً ما أشاروا إلى إنتاج المعادن. وقد سعى هؤلاء المستكشفون أحياناً إلى البحث عن المناجم لتحديد فوائدها الاقتصادية المحتملة. تبع ذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين المزيد من الدراسات الأكاديمية من قِبل

[59] تعد كتابات غونزالو فرنانديز أوفييدو التي تعود إلى القرن السادس عشر شاهداً على دوره الرائد في التاريخ الطبيعي للأمريكيتين ولا تعد كتاباته سرداً تاريخياً بل هي تعكس تأثير عصر النهضة الأوروبية على فهمه لطبيعة العالم الجديد.

[60] باربا كان مهندساً وكيميائياً وعالم فلزات، وعُرف بمساهماته في تطوير تقنيات التعدين والمعالجة الكيميائية للمعادن، وله دور مهم كمشرف على المناجم، إذ اهتم بتحسين استخراج الفضة والموارد المعدنية في مناجم البوتوسي (التي كانت واحدة من أكبر المناجم في العالم آنذاك) ولم يقتصر عمله على الإدارة والاشراف بل شمل دراسات عملية لتقنيات تعدين المعادن وتطوير طرق أفضل لمعالجتها بالاعتماد على العلم والمعرفة الكيميائية.

مهندسين متخصصين وجيولوجيين ومنقبين. كما كتب المبشرون والمستوطنون الأوائل في كثير من الأحيان عن الحياة اليومية لمن عاشوا بينهم، بما في ذلك وصفٌ لأعمال تشكيل المعادن التقليدية واستخداماتها في شرق أفريقيا. لسوء الحظ، غالباً ما شابت هذه الروايات أفكار المؤلفين غير الحيادية الذين كانوا إما حريصين على الترويج للطبيعة "الغريبة" (أو "الوحشية") للشعوب، أو كانوا يتجاهلون بحساسية السلوك "غير المسيحي" لهم. ومع ذلك، يمكن أن تكون جميع هذه المصادر مفيدة لعالم الآثار إذا تم النظر في سياقاتها بشكل نقدي. وتشكل الأساطير التقليدية والروايات الشفهية أيضاً مصدراً آخراً للمعلومات حول علم المعادن القديم. يخبرنا الباحث "هالاند" أن التقاليد الثقافية الأوروبية تتضمن أساطير وحكايات شعبية لم تُستغل بشكل كبير، تتناول سحر وطقوس الحِدادة وصناعة الحديد[61]. تحتوي الأساطير الإسكندنافية والسلتية/الأيرلندية، والأفريقية والنوردية والرومانية واليونانية، وغيرها الكثير، على إشارات إلى آلهة الحِدادة، وقد أثارت أعمالهم نقاشاً حول كيفية النظر إلى الحدادين في هذه المجتمعات المختلفة. هناك أيضاً مصادر أخرى قد توفر معلومات قيّمة لعالم الآثار حول المعادن والأدوات المعدنية منها النقوش والمخطوطات والصور الموجودة على الخزف والجدران والفسيفساء والمشغولات المعدنية أو اللوحات. وقد أُجريت دراسات باستخدام هذه الموارد على عدة مواد منها مثلاً: دراسة السبائك النحاسية الأوربية التي كانت توضع على ملابس عثر عليها في مواقع أثرية في كوبا، والتي استُخدم فيها التحليل المعدني إلى جانب معلومات من الأدبيات والمصادر التصويرية[62]؛ كذلك استخدام اللوحات الجدارية المصرية التي تُصوّر صهر النحاس في أفران من الألف الثاني قبل الميلاد لإعادة بناء تقنية صهر

[61] Haaland, R. 2004, Technology, transformation and symbolism: Ethnographic perspectives on European iron working. Norwegian Archaeological Review, p 7, 1–19.

[62] Martinón-Torres, M., Valcárcel Rojas, R., Cooper, J., & Rehren, Th. 2007, Metals, microanalysis and meaning: A study of metal objects excavated from the indigenous cemetery of El Chorro de Maíta, Cuba. Journal of Archaeological Science, 34, 194–204; (fig. 12).

النحاس[63]؛ أو تصوير فرن على مزهرية يونانية كلاسيكية من مدينة فولتشي في إيطاليا (مدينة إغريقية ازدهرت في القرنين السادس والرابع قبل الميلاد بسبب اعتمادها على استخراج وتصدير المعادن وصناعة الأواني البرونزية). وهكذا نرى أن هذا الكمّ الهائل من الأعمال مجتمعةً قدّم مجموعة واسعة من المعلومات القيّمة للمساعدة في تفسير البقايا الأثرية، الأمر الذي ساهم في تعزيز فهمنا لكيفية ولماذا تم تنفيذ العمليات المعدنية في الماضي بالطريقة التي تمت بها.



**مشهد يصور ورشة عمل (وفرن) على لوح طيني من مقبرة أتروسكية (مؤرخة بنحو 575–550 ق.م).**

[63] Tholander, E. 1987, Experimental studies on early iron-making. Unpublished dissertation, The Royal Institute of Technology, Department of Process Metallurgy, Stockholm.




**مشهد لفرن وأعمال حِدادة على آنية فخارية إغريقية من القرن السادس قبل الميلاد.**

**المحاضرة العاشرة:**

# دراسات الأثنوجرافيا الأثرية في مجال التعدين

**مراحل التعدين:**

تساءل العالم الأمريكي براي: "كم عدد علماء الآثار الذين سيفكرون فوراً في التعدين إذا صادفوا روث تمساح في موقع تنقيب في بنما (أميركا الوسطى)؟ على الرغم من أن أفييدو وثق في القرن السادس عشر، استخدام صناع المعادن المحليين المعاصرين براز التمساح المجفف بالشمس لتلميع المعادن"[64]. لا يقتصر دور علم الأثنوجرافيا الأثرية، وكذلك علم تاريخ الشعوب، على تقديم تفسيرات للبقايا الأثرية، بل إنه يساهم أيضاً في تسليط الضوء على سلسلة (أي مراحل) الإنتاج الكاملة التي ينطوي عليها تشكيل المعادن. فبعض جوانب أنظمة الإنتاج، مثل إنتاج الفحم، وتوفير المياه، وإمداد عمال المعادن بالغذاء، وبناء الهياكل العلوية للأفران، وما إلى ذلك، ليست بالضرورة ظاهرة في السجل الأثري. تُعد هذه المراحل حاسمة لنجاح إنتاج المعادن، ومع ذلك، فإن الحصول على معلومات عنها، وكيفية تنفيذها في الماضي، أمر بالغ الصعوبة. إن مراقبة العمليات المعدنية أثناء حدوثها، أو الرجوع إلى تلك التفاصيل الواردة في مصادر تاريخ الشعوب، قد ذكّرت علماء الآثار (وكل من يدرس آثار التكنولوجيا) بضرورة أخذ جميع هذه الجوانب في الاعتبار للحصول على صورة شاملة لممارسات انتاج وتصنيع المعادن القديمة[65].

وقد أثر نمو علم الأثنوجرافيا الأثري بشكل كبير على أسئلة البحث التي طرحها علماء الآثار المعاصرون. فالجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الأقل وضوحاً لتقنيات المعادن (كالطقوس والرمزية والتنظيم

[64] Bray, W. 1971, Ancient American Metalsmiths. Proceedings of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland 1971, p 5–43.
[65] Lemonnier, P. 1992, Elements for an anthropology of technology, Michigan, Ann Arbor.

الاجتماعي والتجارة وغيرها) حفّزت العلماء على اتباع نهج أكثر شمولية لدراسة التكنولوجيا. يوفر إذاً علم الأثنوجرافيا الأثري طرقاً بديلة لدراسة التكنولوجيا والمعادن، لقد أثر هذا التوجه على برامج البحوث مما أدى إلى ظهور وعي جديد بأسئلة تتعلق بالتنظيم التكنولوجي والمشاركة فيه.

**المعنى الرمزي للمعادن في أمريكا الجنوبية والوسطى**

ركز الباحثون في أمريكا الوسطى والجنوبية على إنتاج الذهب والفضة والنحاس وسبائكها التي تعود إلى ما قبل الحقبة الإسبانية. بهدف فهم التسلسل التقني والطقسي لتلك التقنية[66]. وتعد الدراسات الاثنوجرافية–الأثرية التي قامت بدراسة أفران إنتاج الفضة في **بوليفيا**، والتي يُطلق عليها اسم "هوايراشيناس" أو "الهوايرا" وهي أفران صهر أنديزية تقليدية تُدعى باسم "مكان هبوب الرياح" بلغة الكيتشوا، من أهم وأبرز تلك الدراسات. استخدمت هذه الأفران لصهر النحاس والفضة وهي تعمل بطاقة الرياح، بُنيت على تلال عالية من أجل استغلال قوة الرياح الطبيعية، وتتكون من هياكل طينية صغيرة مزودة بفتحات لدخول الهواء وصهر المعادن. قدمت هذه الدراسات بيانات بالغة الأهمية لفهم خصوصية إنتاج الفضة والذهب والنحاس في عهد الإنكا في السجل الأثري[67]، إذ إن معظم ما كان معروفاً عن التعدين في العصور التي تسبق دخول الإسبان كان يعتمد على دراسة القطع المعدنية فقط. ورغم أن بعض القطع المعدنية، وخاصة النحاسية منها، صُنعت لأغراض نفعية، إلا أن الفضة والذهب كانا حكراً على النخبة للدلالة على الثروة والسلطة والنفوذ.

[66] Shimada, I. 1994, Pre-Hispanic metallurgy and mining in the Andes: Recent advances and future tasks. In A. Craig & R. West (eds.), In quest of mineral wealth: Aboriginal and colonial mining and metallurgy in Spanish America, Vol. 33, Los Angeles, Louisiana State University, p. 37–73

[67] Van Buren, M., & Mills, B. 200, Huayrachinas and tocochimbos: Traditional smelting technology of the southern Andes. Latin American Antiquity p. 6.

**حضارة الإنكا:**

تُعد حضارة **الإنكا (Inca)** من أهم الحضارات في العالم، وقد ظهرت وتطورت في أمريكا الجنوبية قبل وصول كولومبوس إليها، ازدهرت هذه الحضارة في جبال الأنديز[68] بين عامي**1438 و1533م**. عُرفوا باسم "أبناء الشمس" وأسسوا دولة شديدة التنظيم عاصمتها **كوسكو** في البيرو الحالية. تحدثت شعوب الإنكا لغة **الكيتشوا (Quechua)** وهي اللغة الرسمية التي لا تزال حية حتى اليوم ويتحدث بها الملايين في الأنديز. انتهت هذه الإمبراطورية مع وصول الغزو الإسباني بقيادة **فرانسيسكو بيزارو** عام 1532، إذ ساهمت الحروب الأهلية الداخلية والأمراض التي جلبها الأوروبيون (مثل الجدري) في انهيارهم السريع. تنسب لحضارة الإنكا مجموعة من الإنجازات الحضارية الهامة جداً، لعل أهمها هي:

1. **الإنجازات الهندسية والمعمارية:** اشتهر الإنكا بقدرتهم المتطورة على البناء، وتقنية صقل الحجارة الضخمة وتركيبها بدقة متناهية دون استخدام "الملاط"، لدرجة أنه لا يمكن إدخال شفرة سكين بين حجرين. وتعد مدينة "**ماتشو بيتشو** :" أي المدينة المفقودة" من أهم الشواهد على براعتهم في البناء فوق قمم الجبال الشاهقة. كما أنهم قاموا بإنشاء **شبكة طرق** تمتد لأكثر من 40,000 **كيلومتر** عبر الجبال والغابات لربط أجزاء الإمبراطورية. وللقيام بأعمال البناء الضخمة والمعقدة طور الإنكا نظاماً اجتماعياً يُدعى نظام ال "ميتا" **(Mita)** وهو نظام عمل جماعي إلزامي لبناء المشاريع العامة (طرق، جسور، معابد)، وهو ما ضمن قوة الدولة.

[68] أطول سلسلة جبلية قارية في العالم، تمتد على طول الساحل الغربي لقارة أمريكا الجنوبية مشكّلةً مرتفعًا جبليًا متصلًا. يبلغ طول السلسلة نحو 8,900 كيلومتر، تمتد جبال الأنديز من الجنوب إلى الشمال عبر سبع دول هي :الأرجنتين، تشيلي، بوليفيا، بيرو، الإكوادور، كولومبيا، وفنزويلا.

2. **نظام الكويبو :(Quipu)** لعدم وجود كتابة أبجدية، استخدموا حبالاً معقودة ملونة لتسجيل البيانات الإحصائية والضرائب والتاريخ.
3. **الزراعة المبتكرة:** ابتكروا **المدرجات الزراعية** على منحدرات الجبال لزراعة المحاصيل، وأهمها البطاطا (التي صدرت للعالم من هناك) والذرة والكينوا.
4. **الصناعات المعدنية:** تُعد سبائك **التومباغا (Tumbaga)** من أروع الابتكارات المعدنية التي اشتهرت بها حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية (مثل الإنكا، الأزتيك، والمويسكا)، وهي سبيكة تجمع بين **الذهب والنحاس.** فتتراوح نسبة الذهب فيها عادة بين 30% إلى 70%، والباقي من النحاس (وأحياناً القليل من الفضة). ولعله من الجدير بالذكر أن النحاس يقلل من درجة انصهار الذهب، مما جعل صبّها في قوالب معقدة أسهل بكثير بالنسبة للحرفيين القدماء مقارنة بالذهب الخالص. وتشتهر سبائك "التومباغا" بالصلابة فهي أكثر صلابة ومتانة من الذهب الخالص، مما جعلها مثالية لصنع الأدوات والزينة التي تدوم طويلاً. وتعد تقنية "**التذهيب بالإزاحة**" **(Depletion Gilding) من أهم تقنيات التعدين وصناعة السبائك في العالم.** إذ استعمل الحرفيون تقنية كيميائية مذهلة تقوم على ما يلي:

1. يصنعون القطعة من السبيكة (التي تبدو ضاربة إلى الحمرة بسبب النحاس).
2. يعالجون السطح بأحماض طبيعية (مثل حمض الستريك من النباتات).
3. تقوم الأحماض بإذابة النحاس من **السطح فقط،** تاركةً طبقة رقيقة من **الذهب الخالص** اللامع.

**وفي النتيجة** تبدو القطعة وكأنها ذهب خالص 24 قيراط، بينما قلبها من سبيكة "التومباغا" أي أن معظمها من النحاس.

**الأهمية الرمزية للتومباغا:**

لم يكن استخدام سبائك "التومباغا" مجرد "خداعاً" بصرياً أو توفيراً للذهب، بل كان له أبعاد دينية/رمزية:

1. **التوازن:** كان يمثل اتحاد "الشمس" (الذهب) مع "الأرض" أو "القمر" (النحاس/الفضة).
2. **القدسية:** كانت تُصنع منها التماثيل الجنائزية، الأقنعة، والآلات الموسيقية المقدسة.

عندما وصل الغزاة الإسبان، أُصيبوا بخيبة أمل كبيرة؛ فقد ظنوا أن الكنوز التي نهبوها ذهب خالص، ليكتشفوا لاحقاً عند صهرها أنها تحتوي على كميات كبيرة من النحاس، فأطلقوا عليها اسم "تومباغا" (وهي كلمة قد تعني "النحاس الرخيص" أو "السبيكة").

**الصناعة المعدنية من خلال الدراسات الاثنوجرافية الأثرية:**

خضعت بعض هذه القطع الذهبية والفضية والنحاسية لتحليلات أثرية معدنية، وكيميائية، مما أتاح الوقوف على تاريخ إنتاجها. لكن الأهم من ذلك، أنه تم استخدام المصادر التي تتحدث عن تاريخ الشعوب والأعراق جنباً إلى جنب مع المخلفات الأثرية المعدنية لفهم أفضل لتقنيات المعادن في فترة ما قبل الإسبان، واستخدام القطع المُنتجة ومعانيها وقيمها. يُظهر عمل الباحثة "ليختمان" هذا الأمر بوضوح. إذ قامت بدراسات خاصة بهدف فهم وكشف التقنيات المتطورة التي استخدمت لتذهيب سبائك النحاس بطريقة الإزاحة فجعلها تبدو وكأنها شي آخر تماماً. العديد من القطع التي دُرست هي من "التومباغا" وهي، كما أشرنا سابقاً، سبيكة من الذهب والنحاس وغالباً مع الفضة أيضاً. وعلى الرغم من أن المكون الرئيسي للسبيكة ربما كان النحاس، إلا أن أسطح العديد من القطع والأدوات (التي لعبت دوراً في المجال الاجتماعي والسياسي والأيديولوجي للنخبة) قد نُزعت منها مكونات النحاس عمداً، تاركةً الأسطح غنية بالذهب أو الفضة. وقد استخدمت ليختمان في دراستها

المصادر الخاصة بتاريخ الشعوب والمعلومات التاريخية الغنية عن الإنكا من أجل فهم وتفسير هذه الظاهرة. استخدم الذهب والفضة للتعبير عن المكانة الاجتماعية والسلطة السياسية والقوة الدينية طوال عصور ما قبل التاريخ في جبال الأنديز[69]. وبحلول زمن الإنكا، ارتبط "عَرق الشمس" بالذهب و"عَرق القمر" بالفضة في نظامهم الكوني[70]. سيطر الإنكا على إنتاج واستخدام الذهب والفضة لأن الإنكا كانوا أبناء الشمس والقمر وفق معتقداتهم. وكانت ألوان هذه المعادن وانعكاسها مرئية وملموسة، فهي مظاهر تعكس المعتقدات السياسية والدينية التي شرَّعت استلام السلطة والحكم لطبقة النخبة في حضارة الإنكا. ولكن إذا كان هذا هو الحال، فلماذا استُخدمت سبائك "التومباغا" في هذه السياقات النخبوية رغم أنها تحتوي على النحاس؟ افترضت الباحثة "ليختمان"، استناداً إلى المصادر التاريخية والتحليل المقارن مع عمليات إنتاجٍ أخرى، أن هناك أساساً أيديولوجياً لتطوير وانتشار التومباغا: (أساس هذه الأنظمة هو دمج المكون الأساسي – الذهب أو الفضة – في جسم الشيء نفسه. إن جوهر الشيء، الذي يبدو ظاهرياً صحيحاً عنه (أي الذي يعكسه السطح)، موجود أيضاً في داخله... حتى لو كان الجوهر موجود بشكل ضئيل). وهكذا، فإن رسائل القوة والمكانة المعروضة على سطح القطع الذهبية أو الفضية تنبع أيضاً من داخلها. وقد استطاع هذا النهج الاثنوجرافي الأثري، الذي يجمع بين المصادر التاريخية والبيانات الأثرية المعدنية، أن يشير إلى التأثير الاجتماعي الثقافي الكبير (وليس التأثير الاقتصادي كما كان الاعتقاد سابقاً) على الاختيار التكنولوجي، إذ أن هناك تفاعلاً معقداً بين الدين وأنظمة القيم والأمور المادية.

[69] Lechtman, H. 1984, Andean value systems and the development of prehistoric metallurgy. Technology and Culture, 25, p. 30.

[70] لا يُمثل "عرق الشمس" أي "الذهب" الثروة المادية فحسب، بل يُجسد أيضًا المعتقدات الثقافية والروحية لشعب الإنكا، الذين اعتبروا الذهب رمزاً لجوهر الشمس. وقد أصبح هذا الكنز رمزاً لمواجهة الإنكا المأساوية مع الاستعمار الأوروبي، وللسحر الدائم للحضارات المفقودة.

**التومباغا في كولومبيا وكوبا:**

تظهر أنظمة قيم مماثلة في تاريخ المعادن في مناطق أخرى من أمريكا اللاتينية. إذ إنه كان "للتومباغا" استخدام بارز في مرتفعات **كولومبيا** خلال عدة قرون. وقد حلل الباحث "فالشيتي" الأنظمة الكونية للمجموعات الثقافية المحلية باستخدام مصادر تاريخ الشعوب والمصادر الاثنوجرافية لتوضيح الصلة الوثيقة بين السبيكة ودورة حياة الإنسان وتجدده وفقاً لمعتقدات هذه الشعوب[71]. فالذهب أصفر اللون وعديم الرائحة ويرتبط بقوى الشمس الذكورية والإنجاب. أما النحاس فذو لون محمر ورائحة مميزة، يرتبط بخصائص أنثوية وفنية مرتبطة بالقمر. بمجرد أن "تخصّب" الشمس القمر، فإنه يمر بدورة من التحولات، وهي المراحل القمرية الشهرية، والتي تتوازى مع نمو الجنين وعملية التحول التي تُعرف ب "التومباغا". إن استخدام الأشياء والأدوات المعدنية (بما لها من سمات تخص اللون والرائحة) من قبل الكهنة، وكذلك عامة الناس أثناء الطقوس يحمل دلالات رمزية للتجدد الخارق للطبيعة وضمان ولادتهم وحياتهم واستمرارهم على الأرض.

وبالمثل، في **كوبا**، كشفت الحفريات في موقع "إل تشورو دي مايتا" عن مقبرة تعود لمستوطنة ظلت مأهولة ومسكونة إلى فترات متأخرة نسبياً (إلى ما بعد وصول المستكشفين الأوائل إلى المنطقة). وأظهر التحليل الأثري للمقتنيات الجنائزية المعدنية أنها مصنوعة من الذهب الخالص والتومباغا المستورد (يُطلق عليه "غوانين" بلغة التاينو: وهم الشعب الأصلي في منطقة الكاريبي[72]) والنحاس الأصفر المستورد (اسمه "توري"). ومرة أخرى، استُخدمت المصادر التاريخية واللغوية لتقديم رؤى حول الاختلافات في الأثاث الجنائزي المعدني ومعاني تلك

[71] Falchetti, A.M. 2003, The seed of life: The symbolic power of gold-copper alloys and metallurgical transformations. In J. Quilter & J. Hoopes (eds.), Gold and power in ancient Costa Rica, Panama, and Colombia, Washington, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, p. 345–374.

[72] **التاينو** بالإسبانية Taíno : هم شعب من الأراواك، وهم السكان الأصليون في منطقة الكاريبي وفلوريدا. كانوا هم السكان الرئيسيين في جزر كوبا وجامايكا وهيسبانيولا وبورتوريكو في زمن الاتصال الأوروبي في أواخر القرن الخامس عشر. وكانوا يعرفون باسم لوكايان في جزر الأنتيل الكبرى وجزر الأنتيل الصغرى الشمالية وجزر البهاماس .كانوا يتكلمون بلغة التاينو، وهي إحدى لغات الأراواك.

المقتنيات وقيمها المُحتملة. أظهرت الدراسة أن مصطلح "غوانين" يشير إلى مجموعة متنوعة من الأدوات ذات سمات أساسية معينة: لون محمر، ورائحة حلوة ولمعان. لم يقتصر هذا على السبائك الثلاثية من النحاس والذهب والفضة، بل شمل أيضاً أنواعاً معينة من الريش والنباتات والسلاحف[73]. كانت هذه الأشياء تُقدَّر أكثر من الذهب لدى النخبة السياسية والدينية في منطقة الكاريبي. قام الباحثون بتحليل ودراسة أساطير ال "تاينو"، كما سجلها المستكشفون الإسبان الأوائل بهدف تفسير الدلالات الرمزية لأدوات ال "غوانين" العائدة لطبقة النخبة (تخبة "التاينو"). لخصت النتائج إلى أن معدن غوانين "يرتبط بقيم مثل: السعي نحو الحضارة، وفصل الجنسين، والزواج من خارج القبيلة، وقواعد زواج الأقارب، وتحقيق النظام الاجتماعي الأمثل أي إقامة مجتمع يحكمه زعماء القبائل"[74]. وقد تم تسليط الضوء مجدداً على قيمة هذه السبيكة من خلال دراسة المصادر الخاصة بتاريخ الشعوب. تُظهر هذه الأمثلة الثلاثة لتفسير معدن "التومباغا" في مناطق مختلفة من أمريكا الجنوبية ومنطقة البحر الكاريبي كيف يمكن للاستخدام الدقيق للمصادر الخاصة بتاريخ الشعوب والمصادر الاثنوجرافية بالتزامن مع التحليل الأثري للمعدن ودراسة اللغة، أن يُوضح قيم المعادن ومعانيها. ومن الملفت أن أفراداً من المجتمعات الهندية الحالية، مثل تلك الموجودة في كولومبيا، ما زالوا ينقلون أساطير ومعتقدات تعود إلى قرون مضت. تسهم الدراسات الاثنوجرافية الأثرية في فهم البقايا المعدنية التي يُعثر عليها في السياق الأثري. كما أن دراسة خصائص أنواع المعادن المختلفة (مثل اللون، والدرجة اللونية، والرائحة، والانعكاس)، والسياق الذي تُستخدم فيه مختلف أنواع الأدوات المعدنية، ولماذا ومن يستخدمها (مثلاً: لأغراض دينية، أو جنائزية، أو زواج، أو ولادة، أو تجارة)، في تقديم أدلة هامة لفهم السياق الأثري لأمريكا الجنوبية والوسطى.

[73] Oliver, J. R. (2000). Gold symbolism among Caribbean chiefdoms: Of feathers, Çibas and Guanín power among Taíno Elites. In C. McEwan (Ed.), Pre-Columbian gold in South America: Technology, style and iconography (pp. 196–219). London: British Museum Press.

[74] المرجع السابق، ص. 214.




**امبراطورية الإنكا في أقصى امتداد لها.**



**تقنية نحت الحجر دون ملاط.**



**أداة طقسية من الذهب من الإنكا.**



**المدرجات الزراعية.**



**تمثال نذري من الذهب.**

**المحاضرة الحادية عشرة:**

# صهر الحديد في أفريقيا وأمريكا الجنوبية

## صهر الحديد في أفريقيا:

يُعدّ صهر الحديد عملية تحويلية إبداعية تُحوّل الخام إلى معدن وظيفي من خلال استخدام النار والتحكم بها بواسطة عمال حديد مهرة. في أفريقيا جنوب الصحراء، تمّ في بعض الأحيان السيطرة على خطر هذه العملية وعدم اليقين المصاحب لها من خلال معتقدات وأيديولوجية تربط صهر الحديد بفعل الإنجاب، فكان صهر الحديد يتطلب معرفة تقنيّة وطقسيّة خاصة جداً. وقد أفضت دراسات الاثنوجرافية حول انتاج الحديد في بعض مجتمعات أفريقيا وأمريكا الجنوبية إلى وجود علاقات بين عمليات صهر الحديد، والحمل والولادة، وكبح جماح عالم الأجداد والأرواح الذي قد يكون ضاراً، بدأت هذ الدراسات الاثنوجرافية في أواخر القرن التاسع عشر واستمرت حتى أواخر القرن العشرين، منها الدراسات التي قام بها كلاً من الباحث كلاين (عام 1937) والباحث كينس (1983)[75]، وقد أبرزت هذه الدراسات الأدوار المتنوعة التي يضطلع بها عمال الحديد في التحضير لعملية الصهر وأثناءها، وكذلك أسماء وخصائص الأفران، والموارد، والمعدات الأخرى المستخدمة، والأغاني التي تُنشد، والصلوات التي تُتلى، والإجراءات التي تُتخذ قبل عملية الصهر وأثناءها، واختيار موقع الصهر. في العديد من هذه التقارير، لوحظ أن أدوار عمال صهر الحديد، وخاصةً عامل الصهر الرئيسي، كانت تُدار بعناية فائقة.

[75] Kense, F. 1983, Traditional African iron working. Calgary: African Occasional Papers 1.

**صهر الحديد في قبيلة ال "فيبا":**

كانت عملية بناء أفران صهر الحديد لدى قبيلة **فيبا** تتجاوز الجانب التقني لتصبح طقساً روحياً واجتماعياً مقدساً، حيث كان يُنظر إلى الفرن ككيان حيّ. تعد قبيلة ال "فيبا **/Fipa** "، التي تقطن جنوب غربي **تنزانيا** في شرقي افريقيا، من أشهر المجموعات التي حافظت على تقنيات صهر الحديد حتى منتصف القرن العشرين وتعرف القبيلة ببراعتها في التعدين التقليدي. قام الحداد "ستيفانو مليمبو" عام **1967** وهو من قبيلة ال "فيبا"، بمناسبة الذكرى السادسة للاستقلال بتقديم عرض حي لعملية صهر الحديد في متحف القرية بدار السلام (على الساحل الشرقي لتنزانيا، على المحيط الهندي وكانت العاصمة حتى عام 1974) في تنزانيا لإحياء هذا التراث. ويضم المتحف نموذجاً لفرن صهر الحديد الخاص بقبيلة فيبا، وهو هيكل مخروطي الشكل مبني من الطين (يُعرف محلياً باسم: "مالونغو" **Malungu**) وتظهر الدراسات والعرض المتحفي مميزات تقنية صهر الحديد عند هذه القبيلة.

**مميزات تقنية صهر الحديد عند قبيلة ال "فيبا":**

1. **الأفران الضخمة** :استخدمت قبيلة فيبا أفران "السحب الطبيعي (Natural Draft Furnaces) "التي قد يصل ارتفاعها إلى 2.8 –3.1 م. وتُعرف أفران السحب الطبيعي بأنها نوع من الأفران مُصمم بطريقة تسمح بدخول الهواء إلى غرفة الاحتراق دون مراوح أو نافخات ميكانيكية[76].

[76] فرن السحب الطبيعي هو نوع من الأفران مُصمم بطريقة تسمح بدخول الهواء إلى غرفة الاحتراق دون مراوح أو نافخات ميكانيكية، إذ إن الهواء يدخل إلى غرفة الاحتراق كما تخرج غازات العادم عبر المدخنة بشكل طبيعي نتيجةً لاختلاف الكثافة بين الهواء الساخن والبارد. فالغازات الساخنة الناتجة عن الاحتراق أقل كثافة من الهواء المحيط البارد، مما يسمح لها بالصعود عبر المدخنة، مُحدثةً تياراً يسحب الهواء النقي إلى منطقة الاحتراق. ولا تتطلب هذه العملية مراوح أو نافخات ميكانيكية.

2. **عملية متعددة المراحل** :تتضمن العملية استخراج خام الحديد، تفحيم الخشب، ثم الصهر في الفرن الكبير، يليه تنقية الحديد في أفران أصغر قبل تشكيله.
3. **الطقوس والرموز** :إن عملية صهر الحديد عند قبيلة الفيبا هي ليست عملية تقنية فحسب، بل كانت دوماً محاطة بطقوس رمزية تشمل استخدام "الأدوية التقليدية "(Vizimba) التي تُوضع في قاعدة الفرن لضمان نجاح الصهر وحمايته من القوى الشريرة.
4. **الاستمرارية:** بفضل بُعد مناطقهم، استمر شعب الفيبا في إنتاج الحديد محلياً (خاصة لإنتاج الفؤوس الزراعية) حتى الخمسينيات من القرن الماضي، رغم محاولات الاستعمار قمع هذه الصناعة لصالح المنتجات المستوردة .

ومن أبرز **الطقوس الرمزية** التي كانت ترافق هذه العملية:

1. **الفرن كـ "عروس** :"كان يُنظر إلى الفرن الكبير (Malungu) على أنه **أنثى أو عروس**. إذ يرتدي الحدادون الرئيسيون خلال عملية البناء والصهر ملابس خاصة ويتم التعامل مع الفرن بقدسية تامة لضمان "إنجاب" الحديد بنجاح.
2. **تمائم "الفيزيمبا :(Vizimba)** "هي أهم طقس في العملية؛ حيث يتم حفر حفرة في قاعدة الفرن قبل بنائه لوضع "أدوية" تقليدية وقرابين. يُعتقد أن هذه التمائم تمنح الفرن "الروح" والقوة اللازمة لتحويل الحجارة إلى معدن، وتحميه من "العين الحاسدة" أو الأرواح الشريرة التي قد تُفسد الطبخة.
3. **العزلة والطهور** :كان على الحدادين (الأسياد) الالتزام بفترة من **العزلة والامتناع عن العلاقات الزوجية** طوال فترة البناء والصهر. كان يُعتقد أن عدم الالتزام بذلك سيؤدي إلى فشل العملية أو انفجار الفرن.

4. **تسمية الفرن:** كان لكل فرن **اسم خاص،** وغالباً ما تُلقى الأناشيد والأغاني أثناء العمل لتشجيع "العروس" (الفرن) على إتمام المهمة، وكأنهم في احتفال زفاف.

5. **حظر الغرباء** :كان يُمنع الغرباء، وخاصة النساء في سن معينة، من الاقتراب من موقع الصهر، خوفاً من أن تؤدي طاقتهم إلى "تلوث" العمليّة الروحية وإفساد جودة الحديد.



**فرن مالونغو اكتشف أثناء التنقيب الأثري.**

**مقارنة مع أمريكا الجنوبية:**

استخدمت حضارة **المويسكا** أيضاً (في كولومبيا الحالية)[77] سبائك "**التومباغا**" لتحويل أساطيرهم إلى واقع طقسي مذهل، وتحديداً في بحيرة **غواتافيتا** المقدسة. إن المويسكا هم السكان الأصليون في كولومبيا، وهم شعب أنديزي عاشوا في السلاسل الشرقية لجبال الأنديز الكولومبية. وقد صنع المويسكا آلاف التماثيل الصغيرة والرقيقة من **التومباغا**، وكانت تُسمى ال "تونخوس/"**(Tunjos)**. تُمثّل هذه التماثيل بشراً وحيوانات وهي لم تكن مصنوعة للزينة بل صُنعت خصيصاً ليتم إلقاؤها في البحيرات كقرابين للآلهة. استخدمت التومباغا في **طقس "إل دورادو" (الرجل المذهب)** وهو حفل تنصيب الحاكم الجديد، إذ كان يتم دهن جسده بالراتنج (مادة صمغية) ثم تغطيته بـ **غبار الذهب**. يصعد الحاكم على مركب وسط البحيرة ومعه كومة من هدايا **التومباغا** والزمرد، وعند الفجر، يلقي بالكنوز في الماء ويقفز هو ليغسل الذهب عن جسده، كرمز لتجديد العهد مع الآلهة.

**الرمزية الكيميائية:** فضّل المويسكا "التومباغا" لأن بريقها الناتج عن "التذهيب بالإزاحة" كان يعطي انطباعاً بأن القطعة **مشحونة بالطاقة الشمسية**، وهو ما يفسر سبب العثور على قطع تبدو ذهبية تماماً رغم أن محتواها الداخلي نحاسي. وتعد "**سفينة المويسكا**" أشهر قطعة أثرية تجسد هذا الطقس، صُنعت "سفينة الذهب/سفينة المويسكا" الموجودة الآن في متحف الذهب ببوغوتا (عاصمة كولومبيا)، من "**التومباغا**" وتصور الحاكم على مركبه محاطاً بالكهنة، مما أثبت صحة الأسطورة التي ظنها المستكشفون خيالاً.

[77] تقع معظمها في الجزء الشمالي الغربي من قارة أمريكا الجنوبية مع مناطق جزرية في أمريكا الشمالية .يحدها من الشمال البحر الكاريبي ومن الشرق والشمال الشرقي فنزويلا والبرازيل من الجنوب الشرقي ومن الجنوب والجنوب الغربي بيرو والإكوادور ومن الشمال الغربي بنما ومن الغرب المحيط الهادي وهي الدولة الوحيدة في أمريكا الجنوبية التي تملك سواحل على المحيط الهادئ والبحر الكاريبي.

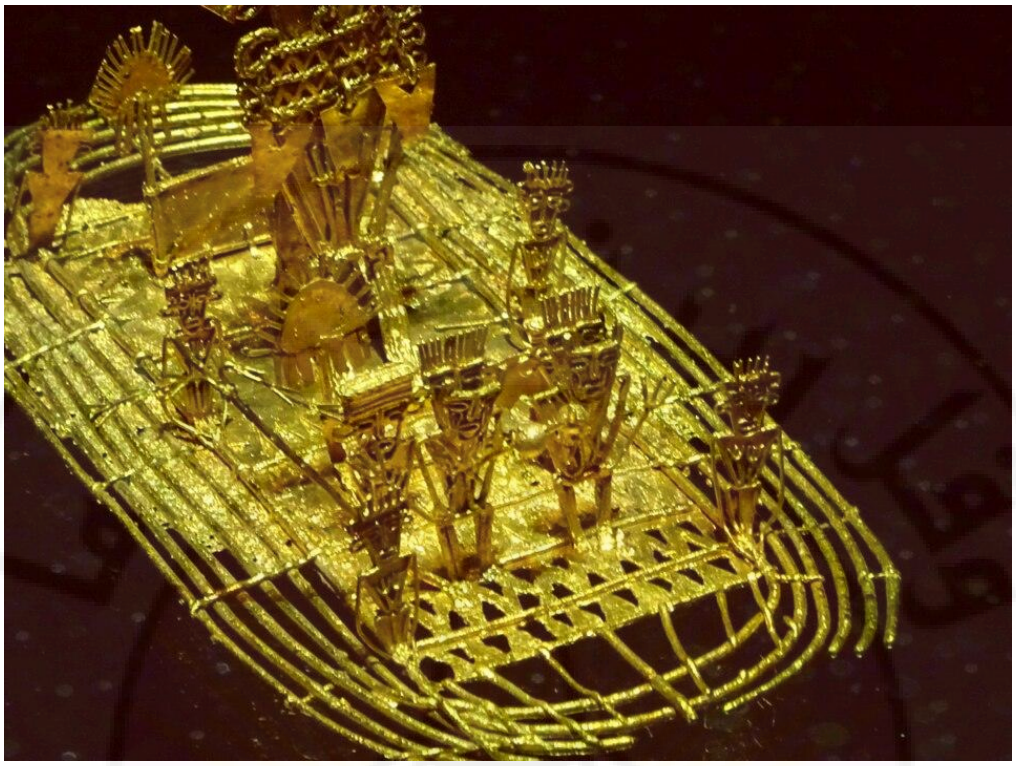
إن سفينة المويسكا والتي يُطلق عليها أحياناً اسم " السفينة الذهبية لإلدورادو" أو "سفينة باسكا" (الباسكا هم أحد مجموعات شعوب المويسكا)، هي قطعة نذرية تعود إلى العصور التي تسبق دخول كولومبوس إلى أمريكا، صنعها شعب المويسكا. كان الطوف/المركب بمثابة قربان استرضاء يُقدم للآلهة. ووفقًا لبعض الباحثين، يُرجح أن القطعة تُشير إلى طقوس تقديم الذهب الموصوفة في أسطورة إلدورادو، والتي كانت تُقام أحياناً في بحيرة غواتافيتا. يدعى هذا الطقس ال "زيبا" (أي تقديم الذهب للآلهة) وقد كان الزعيم الجديد يقف على متن طوف ويُغطى بغبار الذهب، ويُلقي بأشياء ذهبية في البحيرة كقرابين للآلهة، قبل أن يغمر نفسه فيها. ومع ذلك، يرى علماء أنثروبولوجيا ومؤرخون آخرون أن الطوف لا يُشير تحديداً إلى طقوس غواتافيتا حصراً، إذ تم توثيق طقوس أخرى مماثلة في جميع أنحاء أراضي المويسكا. صُنعت هذه القطعة الفنية بين عامي 1295 و1410 م، بتقنية الصب بالشمع المفقود[78]، باستخدام سبيكة من الذهب والفضة والنحاس. وكان الطوف جزءاً من قربان وُضع في كهف ببلدية باسكا ثم أُدخل إلى المتحف عندما عُثر عليه في عام 1856 من قبل ثلاثة فلاحين. توضح صورة الطوف أدناه شخصية نذرية يبلغ طولها 19,5 سم وعرضها 10,1. ولأن هذه الشخصية موجودة في وسط المركب وهي ذات حجم أكبر من باقي الشخصيات فقد تم تفسيرها على أنها الحاكم الجديد. أُحيطت الشخصية المركزية باثنتي عشرة شخصية ثانوية أخرى، يحمل بعضها عصياً ويرتدي من هم في المقدمة أقنعة طقسية.

[78] هو عملية تصنيع يتم من خلالها تحضير قالب من الشمع وإحاطة القالب بمادة خزفية لإنشاء قالب آخر. ثم يتم صهر الشمع، ومن هنا جاءت تسمية الصب بالشمع المفقود. ثم يتم ملئ القالب المجوف بالمعدن المنصهر. تشمل العملية ما يلي: غمس الشمع في ملاط يتكون من السيراميك ويرش بالرمل الناعم، حتى تتكون قشرة رئيسية من السيراميك تتحمل درجات الحرارة العالية ويتم تسخين هذا القالب المطلي في فرن فيذوب الشمع داخله تاركاً تجويف فارغ يملئ بالمعدن المصبوب ولذلك يُطلق على هذه التقنية اسم صب بالشمع المفقود.



**طوف المويسكا**

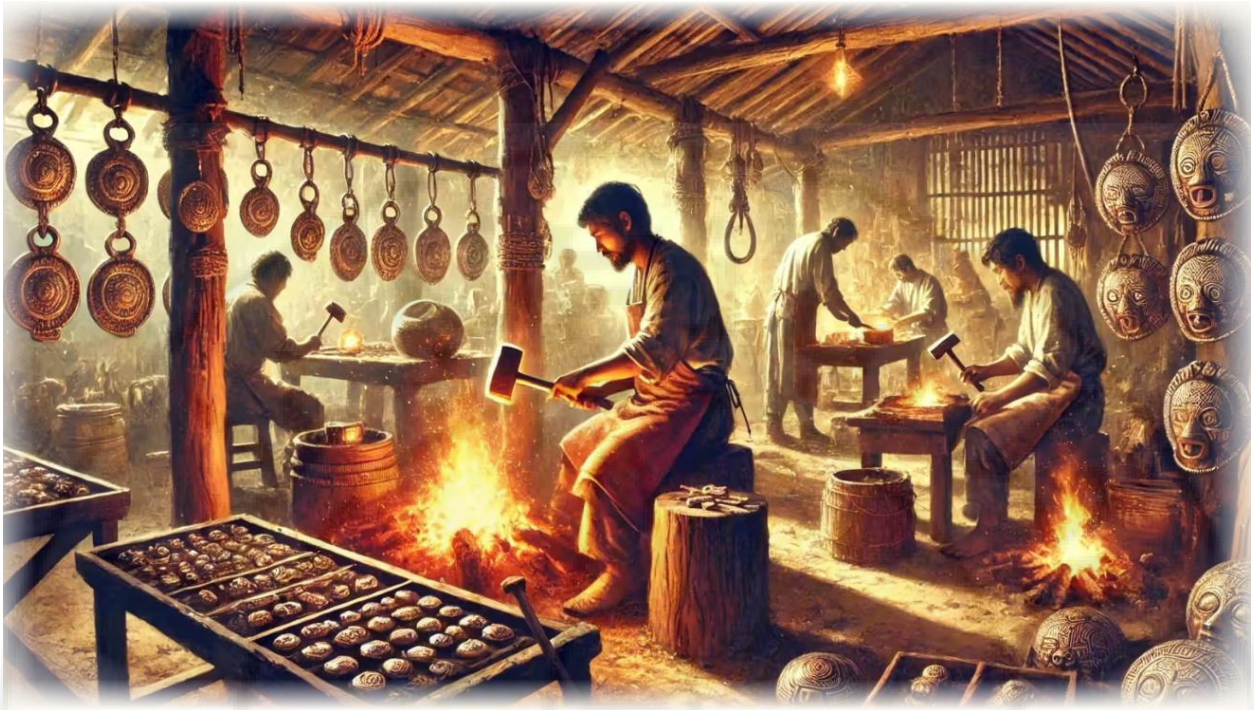




**طوف المويسكا**



**تمثال نذري من الذهب**



**الحرفيون من مستوطنات مويسكا يصقلون الذهب ويصنعون زينة طقسية للمراسم المقدسة.**



**السفينة الذهبية (طوف المويسكا) قارب مقدس يحمل الذهب في بحيرة غواتافيتا في طقس الزيبا.**